التيارات المسرحية المعاصرة

د. نهاد صليحة



مهرجان القراءة للجميع ٩٧

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

التيارات المسرحية المعاصرة

د. نهاد صليحة

الغلاف

الإشراف الفنى:

للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

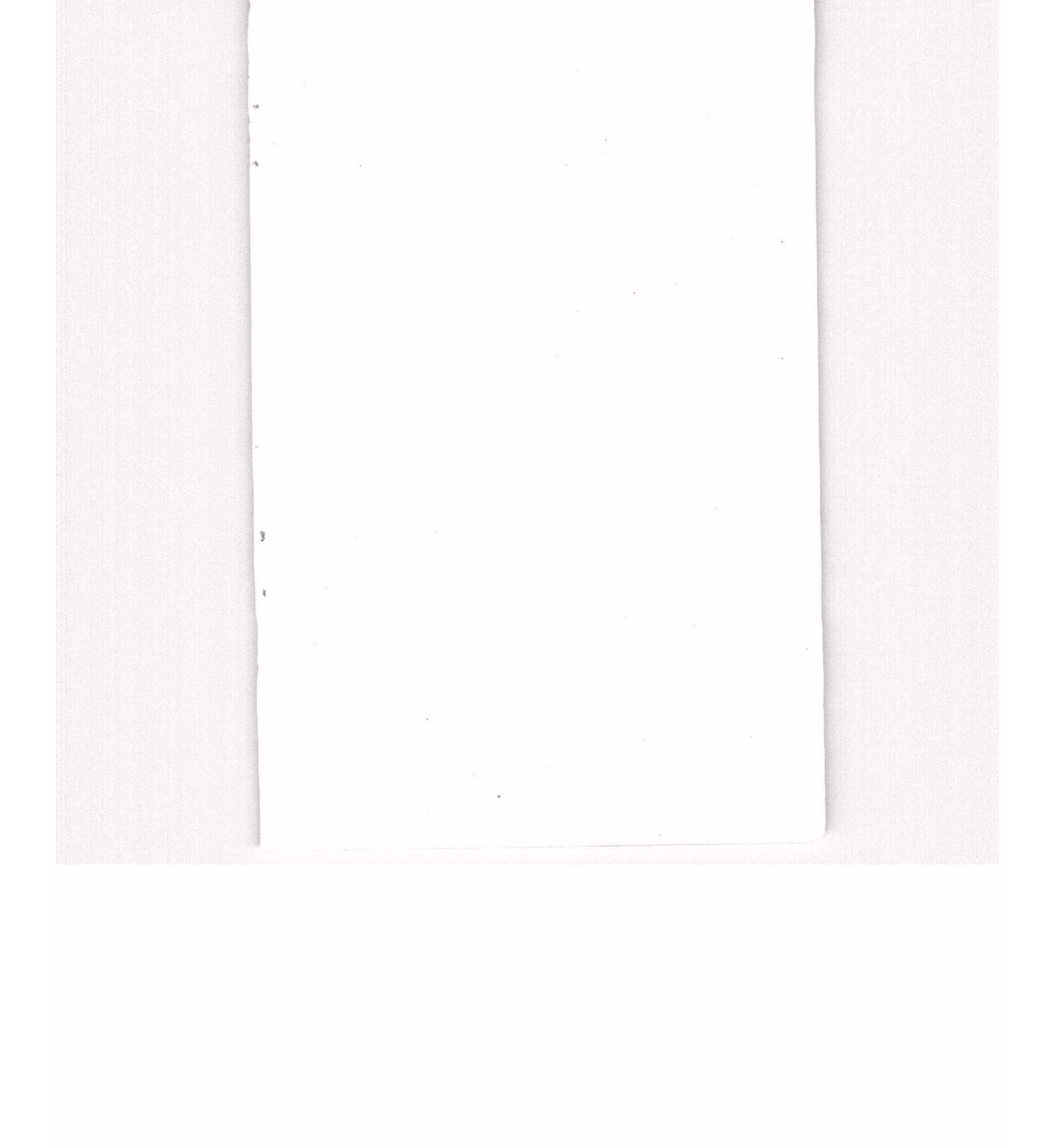
التيارات المسرحية
المعاصرة



مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاثة الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وان مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك



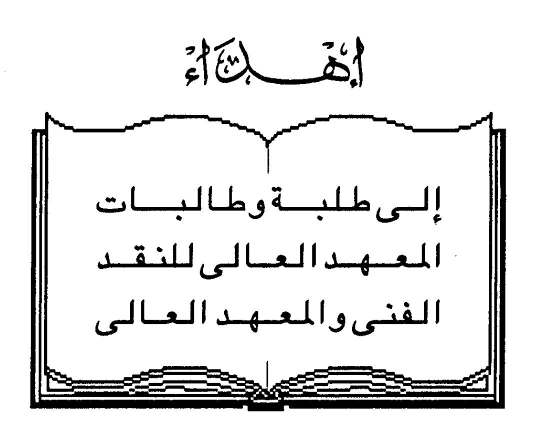
على سبيل التقديم...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع ونور المعرفة مصدر القوة فى عالم اليوم..

صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان

إهداء



تصدير

تميز القرن العشرون - أكثر من أى قرن مضى - بظهور العديد من الحركات الفنية التجريبية التى لم تقتصر على نوع معين من أنواع الابداع الفنى وانما شملت جميع أوجه النشاط الخلاق . ورغم الاختلافات الظاهرية التى تميز تلك الحركات بعضها عن البعض سواء فى شكلها الفنى أو فى التقنين الفكرى والنظرى الذى واكب كل منها فانها تتوحد جميعا فى رفض الاساليب الفنية الموروثة وفى محاولة البحث عن أسلوب جديد قادر على استيعاب رؤية الفنان المعاصر لعالمه والتعبير عن التجربة الانسانية التى تميز عصره - تلك التجربة التى تشمل بالضرورة فكر العصر وعلومه بل وأيضا تكنولوچيته .

والبحث عن أسلوب فنى جديد معبر عن روح العصر ليس بالشئ السهل إذ أن ادراك أى عصر لذاته ووعيه بتفرد تجربته يتحقق عادة ببطء وبصورة غير مباشرة ، وغالبا ما يأتى الأسلوب المناسب بعد الكثير من الجهد والتجربة والخطأ والبدايات الكاذبة .

وكان هذا هو شأن القرن العشرين ربما أكثر من أى قرن آخر إذ تضافرت فيه عوامل كثيرة اقتصادية وسياسية واجتماعية وظهرت فلسفات وعلوم ونظريات جديدة كان لها أثر كبير فى تحطيم معظم المعطيات الموروثة عن العالم والانسان . وبالتالى أصبحت الأشكال الفنية التقليدية غير صالحة وغير مرضية حتى قبل أن تتبلور رؤية العصر لنفسه . ومن هنا نشأت الثورة على القوالب والنظريات

الفنية القديمة وأخذت أشكالا متباينة . فبينما اتخذ البعض التحطيم كهدف فى حد ذاته - مثل الداديين - حاول البعض الآخر إيجاد مفاهيم ومعطيات جديدة وإبداع أساليب فنية جديدة للتعبير عنها .

وهذا الكتاب هو محاولة للتعريف بالتيارات الفنية الأساسية التي برزت فى القرن العشرين والتى ساهمت مساهمة أساسية فى بلورة الحساسية الفنية وأساليب الإبداع الفني فى مجال الدراما .

ولقد حاولت جاهدة أن التزم بالبساطة والوضوح فى عرض كل تيار فنى بحيث تتضح ملامحه الأساسية وخطوطه العريضة فى سهولة ويسر مع التعرض كلما لزم الأمر للظروف التاريخية والمناخ الفكري الذى واكب بروز كل تيار .

كذلك حاولت هنا أن أرتب هذه الدراسات ترتيبا تاريخيا ، إلا أن القارئ سوف يجد أن التيارات الفنية كثيرا ما تتداخل زمنيا . ففى بداية القرن مثلا نجد الرمزية فى فرنسا تتزامل مع المستقبلية فى إيطاليا والتعبيرية فى المانيا وبوادر الدادية فى سويسرا قبل انتقالها إلى فرنسا .

ورغم أن التيارات الفنية التى يرصدها هذا الكتاب قد نشأت وتبلورت فى الغرب إلا أن العديد منها قد أثر تأثيرا واضحاً على أساليب الكتابة الدرامية والعرض المسرحى فى عالمنا العربى وخاصة تيار المسرح الملحمي البريختى بتوجهاته الاشتراكية ، والتيار

التعبيرى ، وتيار مسرح العبث - بل إن تناول كبار كتابنا ومخرجينا لهذه التيارات فى الخمسينيات والستينيات قد أسهم مساهمة فعالة فى تجديد دماء المسرح المصرى وإنتاج ما أصبح يسمى فيما بعد بمسرح الستينات .

د. نهاد صليحه

الرمزية

رغم أن المدرسة الرمزية ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر - حوالى عام ١٨٧٠ - إلا أن استخدام الرمز فى الأدب - كما يؤكد لنا الناقد **مارتن تيرفل** - كان قديما قدم الأدب نفسه: « بل إننا يمكن أن نصف كل أدب أوروبا بانه أدب رمزى » (**خلفاء بودلير** - ١٩٤٣) . فاستخدام الرمز فى التعبير ما هو إلا مظهر من مظاهر اللغة ، والاختلاف الحقيقى بين الرمزيين وغيرهم من الأدباء الذين استخدموا الرمز كوسيلة أدبية فعالة يكمن فى محاولة الرمزيين استخدام تلك الأداة اللغوية كوسيلة لاختراق حجب الغيب والنفاذ إلى عوالم لا تتوصل اليها الحواس ، والوصول إلى ما اسماه **رامبو** فى **رسائل كاشف الغيب** « بحالة من التوحد مع الله » بحيث نرى صورته المقدسة ونرتفع فوق تفاهات الحياة اليومية لنكشف أسرار الوجود ونعبر عن ما يستحيل التعبير عنه» . لقد حاولت المدرسة الرمزية إعطاء الرمز وظيفة روحية وبعدا دينياً متساميا بدلا من اعتباره أحد الأساليب الفنية مثله فى ذلك مثل التشبيه أو الاستعارة أو الكناية .

« إن كل فن فى الواقع » - كما قال الفيلسوف والناقد الشهير **إرنست كاسيرر** - « هو فن رمزى يرمى إلى تجسيد المعانى عن طريق الرمز سواء كانت هذه المعانى بسيطة وملموسة فى الحياة اليومية العادية - كما نجد عند المدرسة الطبيعية - أو غريبة غير

مألـوفة تنتـمى إلى عالم مـا فوق الحواس - كـما هو الحـال عند الرومانسيين أو الرمزيين » (**مقاله عن الإنسان - ١٩٤٤**) . لقد كان عـالم ما فوق الحـواس وعالم المعانى الغـير مألوفـة هو العالم الذى تصدى الرمـزيون للتعـبير عنه واسـتخدمـوا لغة تنتـفى منها الدلالة المباشرة وتعتمد أساسا على الموسيقى والإيحاء .

ما هو الرمز :

الرمز فى أبسط صوره هو علامـة أو إشارة - قد تكون صورة أو كلمة أو نغـمة - لها دلالـة معروفـة أو معنى معين فى مـجال التـجـربة الإنسانيـة المحـسـوسة والمتـوارثة . وربما كـانت اللغـة الهيروغلـيفية التى تعتـمد على الصور أوضح مثـال على الرمز فى هذا التعـريف البسـيط . والرمز هنا يصـبح - كمـا يقول **إرنست كاسيرر** « وسيلة لتخـزين وحفظ التجارب الحسية البـسيطة العابرة بحيث تكتسب صفة الدوام التى لا يمكن للخـبرة الإنسانية أن تنمو دونها » (**فلسفة الاشكال الرمزية - ١٩٥٣**) .

وترتبط الإشارات أو العلامات بمرور الوقت بشحنات شعورية تكون أحـيانا جمـاعيـة متـوارثة - كارتبـاط الساحرات بالـشر فى مسرحية **ماكبث** مثـلا - وأحيانا أخرى فـردية مستقـاة من تجارب نفسـية خاصة - كـارتباط صورة النمـر المضئ فى قصيدة الشـاعر الانجليزى **وليام بليك** الشهـيرة برهبـة المجهول . وعندمـا ترتبط إشارة معينة بشحنة شعـورية متكررة نجد أن دلالة الرمز قد تخطت عالم التـجربة الحـسيـة البسيطة إلـى عالم النفس والمعـانى المجردة

وأصبح تحديدها أكثر صعوبة . هنا لا يصبح الرمز تدليلا على عالم الحواس وإنما وسيطا بين عالم الحس وعالم الروح والمشاعر - أى يصبح أداة للإيحاء بمعان قد يصعب التعبير عنها بأى صورة أخرى ، كما يصبح وسيلة لاستشفاف المعانى الثابتة خلف المظاهر الحسية الزائلة أو المتغيرة .

واستخدام الرمز ملكة أساسية فى التفكير البشرى . « كان الإنسان البدائى » - كما يقول الفيلسوف الالمانى **جـ. هيردر** « يرى شجرة عالية تمتد فروعها العظيمة إلى السماء فتتملكه الرهبة . وعندما تتحرك أغصانها يكاد يرى الخالق يتحرك فيخر ساجدا ويتعبد . وفى هذه الحركة كانت بداية الانتقال من عالم الرؤية المحسوسة إلى عالم الفكر المجرد » . أى أن الإنسان فى مراحل تطور الثقافة الإنسانية الأولى « كان يتلمس طريقه وسط غابة من الرموز والأساطير والاستعارات نحو الأفكار المجردة ، وكان الرمز وسيلته الأساسية لاستشفاف معنى الكون والدلالات الروحية للأشياء المحسوسة » (**ج. فيكو- العلم الجديد - ١٧٢٥**) . وفى مرحلة متقدمة تعلم الإنسان الأسماء وأصبحت الأسماء رموزا لتجارب حسية وتجارب شعورية . واكتسبت معظم الأسماء دلالتين - دلالة أولى تنتمى إلى عالم الحواس - أى الشئ المحسوس الذى يشير اليه الاسم ، ودلالة ثانية تنتمى إلى عالم الروح - أى الشحنة الشعورية التى يثيرها تذكر الشئ فى نفس الإنسان . وأصبح الرمز

لا يستدعى صورة فقط وإنما شريحة عريضة من التجربة الإنسانية أو شحنة كبيرة من الطاقة النفسية التى ارتبطت بالصورة التى يشير إليها الاسم .

والرموز نوعان :

هناك الرموز الجماعية المتوارثة وهى ما أسماها العالم النفسى الشهير **يونج** بالرموز الفطرية التى تنتمى إلى الوجدان البشرى الجماعى ، تلك الرموز التى رصدها وناقشها باستفاضة عالم الأجناس جـ . **فريزر** (فى كتابه **الغصن الذهبى** - ١٩٢٢) ، وهناك الرموز الفردية التى ترتبط بوجدان فرد بعينه وتكون نتاج تجاربه الخاصة . وتتمثل تلك الرموز الفردية فى الحياة اليومية فى عادة التفاؤل والتشاؤم من أشياء تختلف من شخص لآخر . فالقطة السوداء قد تكون رمزا للخير عن شخص، ما بينما تكون عند آخر رمزا لشر مستطير !

الرمز فى الفن والأدب :

والرمز فى الفن والأدب له نفس الوظيفة : فهو وسيلة لتجسيد وتوصيل التجربة الفنية فى صورة مكثفة ومركزة لها نفس الشحنة الشعورية التى تميز التجربة . إن استخدام الرمز فى الأدب يعود إلى بداية الأدب نفسه كما ذكرنا من قبل إلا أن الوعى النقدى بالرمز كوسيلة أدبية فعالة لم يتبلور حتى القرن التاسع عشر . لقد حاول عالم اللغة الإغريقى **فوجنتياس** فى القرن السادس بعد

الميلاد أن يحدد البعد الرمزى فى أعمال **فيرجيل** خاصة قصيدة **الإنيادة** التى وصفها بأنها قصة رمزية تمثل تطور حياة الإنسان من الطفولة إلى الكهولة ، كما حاول أن يكتشف البعد الرمزى فى الأسماء عن طريق تتبع اشتقاقها اللغوى . كذلك حاول الكثيرون من علماء الفقه واللغة فى العصور الوسطى وصف وتحليل رمزية **الكتاب المقدس** وتقسيم رموزه إلى رموز لها دلالات مباشرة حسية ورموز لها دلالات روحية تتخطى عالم الحواس مثل رموز الماء والشمس ومدينة القدس ، ثم جاءت محاولة **دانتى** الشهيرة لتحديد المستويات الرمزية فى قصيدته الخالدة **الكوميديا الالهية** - تلك المحاولة التى ضمنها فى خطاب أرسله إلى صديقه **كان جراندا ديللا سكالا** وأرفقه فيما بعد بالجزء الأول من القصيدة المسمى **الجنة** . وحتى فى القرن الثامن عشر - وكان عصر العقلانين والتنوير - نجد عالم اللغة الإيطالى **جيامبارتيستا فيكو** يحاول تأكيد أهمية الرمز والاستعارة والأسطورة فى تطور الفكر الانسانى . ولكن رغم كل هذه المحاولات النقدية ، وبالرغم من أن أدباء العصور الوسطى وعصر النهضة والقرنين السادس والسابع عشر قد استخدموا الرمز والقصة الرمزية فى أعمالهم بإبداع شديد حتى أن مسرحية **العاصفة** التى كتبها **شكسبير** فى أوائل القرن السابع عشر يمكن اعتبارها بحق أبدع عمل درامى رمزى على الإطلاق - بالرغم من هذا إلا أن الوعى النقدى بالرمز لم يتبلور ويكتسب أبعاده الفلسفية حتى ظهور الفلسفة المثالية فى ألمانيا

بتأثير من نظرية الفيلسوف كانط فى المعرفة إبان التيار الرومانسى الذى ساد أوربا منذ أواخر القرن الثامن عشر .

الأسس الفكرية للرمزية :

سادت تيارات الفلسفة التحليلية العلمية والفلسفة العقلانية والفلسفة النفعية القرنين السابع والثامن عشر . وكانت هذه الفلسفات تعتمد على افتراض أساسى نبع من نظرية جون **لوك** ثم نظرية **ديكارت** فى المعرفة . كان هذا الافتراض الأساسى هو أن العالم الخارجى موجود وجودا موضوعيا بصرف النظر عن العقل المتلقى . وسواء كان هذا العقل لوحا أبيض كما يقول **لوك** ، يتلقى فى سلبية ، أو قوة عقلانية فعالة نعملها فى تحليل وتفسير الظواهر ، كما يقول **ديكارت** ، فالنتيجة واحدة ، وهى الاعتراف بالوجود الموضوعى لعالم خارج الإنسان يمكن معرفته معرفة موضوعية .

وفى ظل هذا الافتراض تأكدت فكرة الفن كمحاكاة لهذه الحقيقة الموضوعية البالغة الدقة - أى أن الفن أصبح مرآة لهذا العالم الخارجى الموضوعى ، وأصبحت دقة المحاكاة هى الهدف المنشود . وفى ظل مبدأ المحاكاة هذا أضمحلت أهمية الرمز كوسيلة أساسية فى التعبير الشعرى ، وأصبح مجرد حلية جمالية يمكن الاستغناء عنها . إذ أنه عندما تصبح كل الأشياء واضحة ومحددة ومفهومة لا تكون هناك ثمة ضرورة لأن نلجأ للإيحاء عن طريق الرمز .

ثم جاء **إيمانويل كانط** فى أواخر القرن الثامن عشر ليحطم هذا الافتراض: تقول نظرية **كانط** فى المعرفة - فى تبسيط شديد - باستحالة الوجود الموضوعى التام للعالم الخارجى فى حد ذاته . فالظواهر الخارجية يعاد تشكيلها وتكتسب معان جديدة عندما تدخل إلى العقل البشرى . والعقل البشرى يوجد وبه معطيات أو أفكار أو قوالب ثابتة يتشكل العالم من خلالها . أى أن العقل البشرى هو قوة خلاقة تعاد صياغة الظواهر الخارجية من خلالها ، وما المعرفة إلا حصيلة نشاط العقل وإعماله فى الظواهر الخارجية .

وبالغ أتباع **كانط** فى تفسير فلسفته هذه حتى تبلورت فى الفلسفة المسماة **بالمثالية الذاتية** والتى تقول بأنه لا وجود لعالم خارجى منفصل عن الإنسان ، وبأن الحقيقة هى نتاج النفس البشرية ، وبأن الشئ ما هو إلا فكرتنا عن الشئ أو الاسم الذى نعطيه له . أى أن الحقيقة هى مجرد أفكار لا دلالة لها فى عالم خارجى محسوس حيث أن العالم الخارجى المحسوس لا وجود له منفصلاً عن النفس البشرية إنما هو - فى قول الفيلسوف **فيشته** - « الامتداد اللاواعى للنفس البشرية الواعية ينتظر لحظة الوعى حتى يكتسب معناه » .

وفى ظل نظرية **كانط** والمبالغات التى تبعتها لم يعد الشعر محاكاة للطبيعة أو العالم الموضوعى البالغ الدقة والتنظيم والكمال - كما كان الاعتقاد فى القرن الثامن عشر - وإنما محاكاة لعملية الخلق نفسها . وأصبحت القصيدة فى ضوء هذا التعريف وجوداً

مطلقاً يعبر عن معان مطلقة تستكين فى النفس الإنسانية منذ الأبد، ولا يحاكى أى شئ خـارجه، حيث أنه لا يوجد أى شئ خـارجه! أى أن العمل الفنى أصبح كائناً عضوياً مـستقلاً عن أى شئ خارجه ، مثله فى ذلك مـثل الموسيقى ، وأصـبحت القصـيدة فى كليتـها العضوية بناءً رمزياً متكاملاً يعبـر عن حقيقة روحية مطلقة لا يمكن التعبيـر عنها بأى صورة أخرى . لقد أصبح الشـعر فى ظل المثالية الألمانية « قـاموس الروح » أو « مـوسيقى الروح » - كـما وصـفه الفيلسوف جـ . **هيردر** .

وكان لأفكار المثاليين الألمان عن عـضوية القصيدة واستـقلالها الكامل واقترابها من الموسيقى أثر مباشر فى بزوغ فكرة **الفن للفن** التى ازدهرت فى فـرنسـا فى بداية القـرن التاسع عـشـر ، والتى اعتنقها الشاعر الأمريكى **إدجار آلان بو** ومن بعده الشاعر الفرنسى **بودلير** متأثـرا به - تلك الفكرة التى كانت ركنًا أساسيـاً من أركان الرمزية .

تأثير الفلسفة المثالية فى فرنسا وظهور نظرية الفن للفن :

فى أوائل القـرن التاسع عـشر عـادت إلى فرنسـا كوكبـة من المثقفين الفرنسيين المهاجرين . وساهم هؤلاء فى نشر أفكار وفلسفة **كانط** فى العاصمة الفـرنسية . وكان من بينهم **بنجامين كونستان** الذى التصق التـصاقاً وثيقًا بالدوائر الأدبيـة الألمانية عام ١٨٠٤ ، ووصف فى مـذكراته الخـاصـة كيف تبلـورت فكرة الفن للفن من

مناقشـات الفلاسفة المـثاليين لأفكار ونظريات **كانط** . وفـى عـام ١٩١٣ نشرت **مدام دى ستايل** - وكانت من العائدين - كتابا عن ألمانيا تضمن شـرحا لفلسفة **كانط** وفلسفة المثـاليين الذاتية . وبعد ذلك قام **فيكتور كوزا** بإلقاء سلسلـة من المحاضرات عن الفلســفة الألمانية استمرت منذ عام ١٨١٦ إلى ١٨١٨ . ونتيجة لهذا النشاط برزت فكرة الفن للفن . فنجـد الشـاعر **جوتييه** يقول فى مـقدمة ديوانه **قصائد أولى** (١٨٣٢) : « إذا كان هناك ثمـة هدف يحاول هذا الكتاب تحقيقه فهو فقط أن يكون جميلاً » . ثم نجد تعبير الفن للفن يظهـر إلى الوجـود لأول مـرة فى سيـاق جـدال أدبى على صفحـات الجرائد عام ١٨٣٣ . وعندمـا نصل إلى عام ١٨٤٧ نجد أن فكرة الفن للفن قـد أصبحت نظرية لهـا شعبـية واسعـة وأتباع كثيرون (**جوتييه** - مقالة « الجميل فى الفن » - ١٨٤٧) .

وواكب انتشار هذه النظرية فى فرنسـا ذيوعها أيضا فى أمريكا على أيدى الشاعر والقصاص **إدجار آلان بو** . ولقد تأثر **بو** أيضا فى تكوينه لفكرة الفـن للفن بفلسفـة **كانط** التى تعرّف عليـها من كتابات المفكر والشاعر الإنجليزى **كوليردج** ومن محاضرات **أ. و. شليجل** عن الدرامـا . ولقد سـاهم **بو** أكثـر من أى معـتنق آخر لنظرية الفن للفن فى إكسـابها أبعاداً فكرية ساهمت بقدر كـبير فى بلورة التيار الرمزى خاصة حين تأثر الشاعر الفرنسى **بودلير** بتفسير **بو** الخاص لهذه النظرية .

يقول **بـو** فى محاضرته بعنوان **المبدأ الأساسى فى الشعر** - وقد نشرت بعد موته عام ١٨٥٠ :

« يتدفق علينـا الإلهام نحن معـشر الشعـراء فنلمح فى لحظة نشـوة عن طريق الحـدس رؤى رائعـة لا يمـكن أن يراها الإنسـان العادى إلا بعد أن يرحل إلى عالم ما وراء القـبر . ونحاول حينئذ - عن طريق توليفات وتركيبات متنوعة من أفكار وأشياء تنتمى إلى هذا العالم المحدود - أن نحقق عن طـريق الإيحاء جزءًا بسيطاً من هذه الرؤى الخالدة . إن المتعة التى يستقـيها الإنسان من الشعر هى أعمق المتع وأكثرها تسامـيـاً إذ أنها تنبع من تأمل هذا الجمال الخالد . وعن طريق هذا التأمل تـتسامى الروح ، وهذه التـسامى يكون المعنى الحقيقى لما نسمـيه بالمتعة الفنية وفيه تكمن القيـمة الأخلاقية الحقيقية للشعر » .

فالشعر إذن فى رأى بو يستخدم « أفكار وأشـياء » هذا العالم المحسوس كـرموز للإيحاء بمعان ورؤى روحيـة لا يمكن إدراكها إلا من خلال التركيبة الرمزية - التى هـى القصيدة نفسها . وفى تأمل التركيبة الجمالية لهذا الشكل الرمزى تكمن القيمة الأخلاقية للعمل الفنى ، فتأمل الجمال النورانى يؤدى إلى التسامى الروحى .

لقد كانت هذه الأفكار - خاصة بعد أن أكدها وعمقها **بودلير** - ومن بعده **ملارميه** و **رامبو** - هى النواة التى أنبـتت المدرسـة الرمزية .

ظهور المدرسة الرمزية فى فرنسا فى مجال الشعر:

رغم أن المدرسة الرمزية بدأت فى الظهور منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلا أن لفظة الرمزيين لم تظهر إلى حيز الوجود حتى عام ١٨٨٥ حين ضاق بعض الكتاب الشبان بلقب «المنحلين» الذى كان يستخدم عادة فى وصف الكتاب الرافضين للنظرية الواقعية والطبيعية ، والمتأثرين بنظرية الفن للفن والفلسفة المثالية الذاتية ، فاختاروا أن يسموا أنفسهم بالرمزيين .

فالمدرسة الرمزية تختلف عن غيرها من المدارس الأدبية المسرحية : فهى لم تنشأ دفعة واحدة ولم تكن لها مبادئ محددة معلنة منذ البداية . لقد ظهرت الرمزية فى مراحل زمنية متتالية ، وعلى أيدى أدباء عديدين قام كل منهم على حدة ببلورة بعض من المبادئ والأفكار التى كونت النظرية الجمالية التى عرفت فيما بعد بالرمزية . ونستطيع أن نلخص هذه المبادئ على النحو التالى :

أولاً : رفض مبدأ محاكاة الطبيعة . فالطبيعة كما وصفها بودلير هى « ستار » يحجب العالم الروحى الحقيقى ، والوسيلة الوحيدة التى تمكننا من رؤية « لمحات » من هذا العالم الساحر - عالم « ما وراء القبر » - هو الشعر . فالشعر هو طريق الإنسان إلى المطلق ووسيلة لاستشفاف عالم الخلود .

ثانياً : الاعتقاد بأن جمال العالم المحسوس هو انعكاس للجمال العلوى النورانى . فالعالم المحسوس إذن ما هو إلا « غابة

من الرمـوز » فى وصف **بودلير** ، وكل شئ فـيه له معـنى رمزى يربطه بعالم الروح .

ثالثاً : رفض العـقـل والإيمان بأن ملكة الخـيـــال هى الملكة الوحيدة التـى تمكن الإنسان من إدراك الحقيقة - أو كما قال الشاعر **بليك** مـن قـبـل : « إن الخـيــال هو الملكة التى يتكـشف لنا عـن طريقها الخلود » . والمقصود بالخيال هنـا هـو المقدرة علـى استنباط المعانــى الرمزيـة الكامنة فى الظواهر الحـسيــة حيـث أن الطبـيعـة المحسوسـة هـى تجسيد رمزى للحياة الروحية .

لقد وصف **بودلير** الخيال بأنـه الملكة التى علمت الإنسان منذ بدء الخليـقة « القيـمة الرمـزية لكل لون وكل رائحـة وكل صوت وشكل . وهى الملكة التى خلقت التشبيه والاستعارة . وهى الملكة التى تستطيع أن تذيب العـالم ثم تعيد تشكيله حسـب قوانين أزلية تنبع من أعماق الروح » .

رابعاً : الإيمان بوحدة وعـضوية العـمل الفنى واستـقلاله ، وبأن كل عمل فنى جيـد هو تركيبة رمزية مـعقدة تعّبر عن حقـيقة روحية فريدة . لذلك فنحن لا نسـتطيع أن نقارن العمل الفنى بأى شئ خارجه أو أن نفـرض عليه قوانين وأحكامًا خـارجية . وعلى هذا فـالقيـمة الأخـلاقية لـلعمل الفنى تقـاس بمدى جودته الفنـية واستقلاله . إن العـمل الفنى الجيد يعبر عن حقيقـة روحية بصورة جيدة وهو لذلك لا يمكن أن يكون لا أخـلاقياً أو قبيـحاً حتى ولو كانت المادة التى صـيغ منها قبيحـة أو لا أخلاقية بالمعنى الـتقليدى

المتعارف عليه . ولقد عبر **بودلير** عن إيمانه بهذه الفكرة عندما اختار لأحد دواوينه عنوان **زهور الشر** .

خامساً : محاولة استكشاف مشاعر وحالات نفسية جديدة كمادة للشعر عن طريق ممارسة الانحلال وتناول الخمور والمخدرات ، وعن طريق التصوف والتعمق فى العلوم الروحانية والغيبية التى ازدهرت فى فرنسا حينذاك ، خاصة جلسات تحضير الأرواح ، وأيضا عن طريق ممارسة الجنون . ففى عام ١٨٦٢ كتب **بودلير** يقول :

« لقد عملت جاهدا على تنمية جنونى وكم كنت أحس بالرعب والفرح ! » . وفى مقاله عن **فيكتور هيجو** (١٨٦١) يشير بوضوح إلى تأثره بالعالم الروحانى السويدى **إيمانويل سويدنبورج** . وبعد **بودلير** ، ومتأثرا به ، آمن **رامبو** بأن الشاعر الحقيقى يجب أن يصبح ذا بصيرة نافذة تخترق عالم الظواهر إلى عالم العقل الباطن والنفس الداخلية ، بحيث تتكشف له صور لا يمكن للإنسان العادى أن يراها ، وعن كيفية الوصول إلى تلك البصيرة النافذة كتب **رامبو** عام ١٨٧١ يقول :

« يستطيع الشاعر أن يجعل نفسه كاشفاً للغيب عن طريق إحداث الخلل بحواسه ، ويجب أن يتم هذا الإخلال بالحواس على أمد طويل وبصورة واسعة منظمة » .

سادساً : الإيمان بأن عمـلية الخلق الفنى هى عـملية واعـية تستـغرق كل قـدرات وملكات العقل وليـست نتاج لحظـة إلهام أو زيارة خاطـفة لشيطـان الشعر . إن العـمل الفنى الجـيد - فى رأى مالارميه - يجب أن يعكس « تمـكن الفنان من وسـائل تعـبيـره وقدرته على البناء والتشكيل وأيضا قدرته على التنظير الفلسفلى» . لقد كان **مالارميه** خلال السبعينيات والثـمانينيات من القرن التاسع عشر هو نبى الرمـزية ومفكرها ومقننها . ورغم شعبـيته المحدودة كشاعر كان صـالونه الأدبى الذى يعقده كل ثلاثاء يعج بالأدباء من كل صوب . فكان من بين رواده - إلى جانب معظم شعراء وأدباء فرنسا - **أوسكار وايلد و آرثر سيمونز وجورج مور و و. ب. ييتس** . وحاول مالارميه فى شعره أن يستـخلص جوهر الأشياء دون العوارض ، وأن يجعل قصائده بناء محكمًا لا يخضع شئ فيه للصدفـة ، ويرتبط كل جزء فـيه بجمـيع الأجزاء الأخـرى بحيث يكمن معنى القصيدة فى بنائها ولا يمكن أن ينفصل عنه .

سابعاً : الإيمان بضـرورة الاعـتمـاد على الإيحـاء بدلاً من التـقرير أو الإشـارة المباشـرة مع استـغـلال الموسيـقى الكامنة فى الكلمات . كتب **مالارميه** فى هذا الصدد عام ١٨٩١ يقول : «إن التقرير يفقدنا ثلاثـة أرباع متعة القصيدة . إن المتعة الحـقيقية تكمن فى التخمين شـيئا فشيئـاً ، لذا يجب أن نوحى بالشئ وأن نتجنب التقرير المباشر » .

لقد كانت الكلمات عند مالارميه أكثر من إشارات لها دلالات : كانت وسائل إيحاء تكتسب عن طريق الموسيقى اللغوية صبغة الطقوس ، واعتبرها مالارميه وسيلتنا للدخول إلى العالم المثالى . لقد عرّف مالارميه الشعر عام ١٨٨٦ بأنه : « التعبير عن المعانى الغامضة لمظاهر الوجود ، تُستخدم فيه اللغة بعد أن نسترد لها إيقاعاتها الفطرية الأصلية . وفى هذا التعبير تكمن الحقيقة الوحيدة وأيضا المهمة الروحية الأساسية للشعر » .

ثامناً : محاولة تقريب الشعر من الموسيقى . لقد وصف **بول ڤاليرى** المذهب الرمزى عام ١٩٢٠ بأنه « المذهب الذى حاول أن يحقق للشعر نقاء الموسيقى واستقلالها عن أى شئ خارجها ، وتوحد الشكل والمضمون فيها » .

لقد كان شعر **مالارميه** موسيقياً بمعنى أنه كان ينتظم الكلمات كما لو كانت نغمات موسيقية . وكانت قصائد **بول ڤيرلين** من بعده أشبه بالمقطوعات الموسيقية . فقد حاول **ڤيرلين** - كما يقول **جاى ميشو فى رسالة الرمزية فى الشعر (١٩٤٧)** - « أن يجرد الكلمات من مضمونها الفكرى ودلالاتها الحسية حتى لتكاد الكلمات تتبخر وتصبح أصواتاً تذوب فى لحن أساسى » .

تاسعاً : استخدام لغة تعتمد على المفارقة ، والتقابل والتضاد ، والصور والاستعارات الغريبة وتداعى الأصوات والمعانى ، مما تمخض عن تركيبات لغوية غير مألوفة لا تخضع لقواعد ومنطق

اللغة التقليدى ، وذلك حتى يتمكن الفنان من تجسيد رؤى ومشاعر وحالات نفسية غير مألوفة .

المسرح الرمزى فى فرنسا :

مالارميه: منذ بداية حياته الفنية أبدى **مالارميه** اهتماما كبيرا بالمسـرح يماثل اهتـمامـه بالشـعـر حتى أنه بـدأ قصـيـدته الطويلة **الهيروديادا** كعـمل درامى . ورغم أن هذه القصيـدة لم تمثل على خشبة المسرح إلا أن الأفكار التى كونها **مالارميه** أثناء كتابتها لعبت دورا كـبيـرا فى بلورة مـفـهوم المسـرح الرمـزى (أنظر **مالارميه والدراما الرمزية** - تألـيف **هاسكيل م. بلوك** ١٩٦٣) . لقـد تصور **مالارميه** لغة مسرحية جديدة تتحرر من قواعد تركيب الجمل المعروفة وتمتزج فيها الصورة بالحركة امـتزاجاً يعبر تعبيراً رمزياً عن الحياة الـداخلية والنفسيـة فى إطار مسرحى شعـرى . وهذه اللغة الجديدة لن تكون واضحـة أو مفهومة بالمعنى التـقليدى ، فهى لن تنقل أفكاراً أو تقـرر معـانى ولن تخاطب العـقل . بل ستـخاطب الخيـال ، وستـكون مهـمتـها تجـسيد الأحـلام والخيـالات - بل والصمت أيضا - تجـسيداً شعورياً ، وستـتمكن من خلق جو من الغموض وكأن العالم كهف تكتنفه الأسرار .

أما بالنسـبة للحركة على المســرح فقد هاجم **مالارميه** الحركة على المسرح التقليـدى وقال بأن الحركة المسرحـية لابد أن تكتسب طابع الحركة الطقسية وأن تتـم فقط فى حدود الضرورة القصوى .

وعندما تمتزج هذه الحركة الطقسية باللغة الشعرية النقية نكون قد حققنا ما يمكن أن نسميه بمسرح « الشعر الصامت » .

وقد تأثر مالارميه فى أفكاره عن المسرح الرمزى تأثراً كبيراً بمؤلف الأوبرا الموسيقار **فاجنر** (١٨١٣ - ١٨٨٣) . فهو مثل **فاجنر** يؤمن بأن المسرح لا يجب أن يعتمد على السرد أو الحدوته أو المعانى والدلالات المباشرة . ومن خلال **فاجنر** أدرك **مالارميه** أن الدراما الطقسية يمكن أن تجسد مشاعر ومعانى صوفية ، كما أدرك ضرورة استخدام الرقص والموسيقى والتمثيل الصامت فى تصوير أعماق النفس البشرية . إن رؤية **مالارميه** لما يجب أن يكون عليه المسرح - كما وصفها **هاسكيل بلوك** - « تمثل تحولاً شاملاً فى عالم الدراما ، وتمثل عودة حقيقية لعناصر المسرح الأولى فى أبسط وأنقى صورة » ، كما أنها تمثل أيضاً نقطة البداية لما عرف فيما بعد بالمسرح الشامل .

موريس ميترلنك :

فى عام ١٨٩٠ أنشأ الشاعر **بول فورت** - وكان من أنصار المدرسة الرمزية والمخلصين لمبادئها - مسرحاً جديداً فى حى مونبارناس أسماه **تيرترميكست** (وأسمى فيما بعد **تياتردار** - أى مسرح الفن) . ورغم أن هذا المسرح لم يكتب له الاستمرار إلا أنه اكتسب شهرته التاريخية من ارتباطه بالمسرحيات الرمزية للكاتب البلجيكى الأصل **موريس ميترلنك** ، تلك المسرحيات

التى أخرج العديد منها - مثل **بلياس وميليساند** - المخرج الفنان **لونييه بويّى** وكان صديقاً مقرباً للشاعر **مالاوميه** .

ولد **ميترلنك** فى مدينة **جنت** التاريخية ببلجيكا عام ١٨٦٢ . ولعل طفولته فى تلك المدينة نمّت فيه حب العصور الوسطى بكل ما ارتبط بها من أساطير وغموض . ورغم قراءته المستفيضة فى أدب المدرسة الواقعية والطبيعية إلا أنه كان يميل إلى التصوف بطبيعته ، فكثيراً ما ارتاد فى شبابه حلقات التنويم المغناطيسى وتحضير الأرواح ، كما أبدى اهتماماً شديدا بالساحر المشهور حينذاك **هودينى** الذى أظهر قوة خارقة فى السيطرة على العالم المادى وقدرة على الاتصال بالعالم الغيبى . وأدت طبعة **ميترلنك** المتصوفة واهتمامه بالغيبيات إلى التقائه مع الرمزيين فى الثورة على الواقعية والطبيعية والمادية والتطلع إلى مسرح ينفذ خلال العالم المادى ليصور أسرار الروح .

كتب **ميترلنك** عام ١٨٩٦ فى كتابه **كنز البسطاء** ينادى بضرورة إيجاد نوع جديد من الدراما تعتمد على تصوير المشاعر والرؤى الداخلية التى لا تتبلور إلا فى لحظات الصمت وانعدام الحركة الخارجية : « إن ما أتطلبه فى المسرحية هو أن تعالج الهواجس والتوقعات والهواتف . . . إننى أتطلع إلى مسرح يقوم على الأثر العميق للحظات الصمت البليغة » (ترجمة **د. فايز اسكندر**) .

وقد حاول **ميترلنك** فى مسـرحيـاته فى تلك الفتـرة - مثل **الدخيل** و **بلياس وميليسـاند** و **العميان** و **الأميرة مالين** - أن يخلق هذا النوع الجديد من الدراما ، ففى هذه المسـرحيات تتعطل الحركـة الخارجيـة ، وينتقل الحدث إلى داخل الوجـدان . وتصور هذه المسرحيات فى مجموعها رؤية خاصة ، تقترب من الصوفية ، لوحـدة الإنسان وانعـزاله ، وخوفـه الدائم من المجـهول والقـوى الغيبية التى تتحكم فى مصيره . ففى مسرحية **الدخيل** مثلا ، نجد أسرة تجلس حـول مائدة وتنتظر موت الأم التى تحـتضر فى غـرفة مجاورة . وتكمن الدراما كلها - كما يقول د. **فايز اسكندر** - « فى لحظات الاستغراق والـتأمل التى تتخللها الاختلاجـات النفسية التى تهز أفراد العائلة الجالسين حول المائدة إذ يتبين كل منهم حقيقة وجوده وحـقيـقة من حـوله من خلال فكرة الموت أو الرحـيل . . وهى الفكرة التى تشرف على المسرحية باعتبارها الشخصية المحورية » (« **موريس ميترلنك والمذهب الرمزى فى المسرح** » - **مجلة المسرح** - مايو ١٩٦٦) .

وفى مسرحية **العميان** يتكرر نفس الحـدث الداخلى ، فـهى تصور حيرة وتخبط مجمـوعة من العميان يضلون الطريق فى غابة كثـيفة بـعد موت القس الذى كـان يرشدهم . لقـد كان **ميترلنك** يحاول دائما في مسرحياته أن « يجسد الانطلاقات الروحية للنفس نحو عالم غير محسوس» **(فايز اسكندر - المرجع السابق)** . وقد نتج عن هذا تجـاهل عنصرى الزمـان والمكان ، فالشـخصـيات فى

مسرحه ليسوا أشخاصاً لهم معالم محددة وماض وتاريخ ميلاد ، ويعيشون فى مكان وزمان محدد ، بل هم أفكار روحية تتصارع فى محاولة لاستشفاف دورها فى الوجود وتوحدها مع النفس العليا للكون .

كتب **ميترلنك** : « لكى يتعلم المرء أن يحب عليه أن يتعلم أولاً أن يرى . قالت لى صديقة يوما : عشت عشرين عاماً إلى جوار شقيقتى ولكنى رأيتها للمرة الأولى لحظة وفاة والدتنا . . كان من الضرورى أن يفتح الموت فى عنف أبوابه الأبدية حتى يتسنى لنفسين أن ترى إحداهما الأخرى فى شعاع من الضوء اللانهائى » (**كنز البسطاء**) . لهذا كان الموت دائما بطلاً فى مسرحيات **ميترلنك** الرمزية . فالموت يواجه الإنسان بالمستحيل . . بعالم ما وراء القبر لفترة وجيزة . . فتتصل النفس البشرية بهذا العالم وتدرك حقيقتها الروحية . . تلك الحقيقة التى دأب الرمزيون فى البحث عنها متلمسين شتى الطرق .

وتعتبر مسرحيات **ميترلنك** والمسرحيات الرمزية عموما من أصعب المسرحيات إخراجاً على المسرح فهى تعتمد اعتماداً كبيراً على الإيقاع والإضاءة لإبراز لحظات الصمت البليغة والظلال الموحية التى تساعد على تجسيد المعانى . وربما كان من حسن الحظ أن ظهر فى ذلك الوقت - إبان ازدهار المسرح الرمزى سواء على أيدى **ميترلنك** أو من تأثروا به - مثل **اندريه أوبى** و **جـ. جـ. برنار** (اللذين أنشأ معاً فيما بعد **مسرح الصمت**) - ربما

كان من حسن الحظ أن ظهر حينذاك مهندس الديكور العبقرى **أدولف أبيا** الذى استحدث أساليب جديدة فى الإضاءة والتصميم المسرحى ، وأحدث ثورة فى شكل خشبة المسرح .

المسرح الرمزى خارج فرنسا :

ولم يقتصر تأثير النظرية الرمزية فى المسرح على فرنسا وحدها إذ سرعان ما انتشرت فى أوروبا فانعكست فى أعمال **سترندبرج** الأخيرة مثل مسرحية **الحلم** و **سوناتا الشبح** وفى أعمال **هنريك إبسن** الأخيرة مثل **البناء العظيم** و **عندما نحيا نحن الموتى** - تلك المسرحيات التى ربط فيها **إبسن** العالم المادى بالعالم الغيبى فى وحدة الرمز المتعدد الأصداء ، بحيث يلقى كل من العالمين أضواءً على الآخر . كذلك وضح تأثير المدرسة الرمزية فى أعمال الشاعر الأيرلندى **وليام بتلر ييتس** ، خاصة فى مسرحياته المسماة «تمثيليات كتبت للراقصين» ، والتى حاول فيها أن يصور عالماً علوياً نورانياً تتخاطب فيه الأرواح، والتى غلب عليها طابع شاعرية الحركة التى استقاها **ييتس** من المدرسة الرمزية وأيضا من المسرح اليابانى المعروف باسم «النو» ، الذى يعتمد على الإيقاع والموسيقى والتمثيل الصامت . وفى أيرلنده أيضا تأثر الكاتب المسرحى **جون ميلينجتون سينج** بالمدرسة الرمزية ، غير أنه فضل فى مسرحياته أن يتبع الطريق الذى سلكه **إبسن** فى عدم إسقاط

البعد الواقعى للدراما ، واستخدام الرمز كوسيلة لإعطاء العالم المادى بعداً روحياً .

إن المسرح الرمزى الذى تبلور على أيدى **ميترلنك** و **ييتس** و **ستروندبرج** من ناحية ، وعلى أيدى **إبسن** و **سينج** من ناحية أخرى ، يوضح لنا تيارين أساسيين فى النظرية الرمزية : التيار الأول يعكس الاعتقاد بأن العالم المحسوس ما هو إلا ستار يحجب الغيب ويجب اختراقه . وعادة ما يُترجم هذا الاعتقاد دراميا عن طريق إلغاء المستوى الواقعى للحدث بحيث يقترب العمل الدرامى من القصيدة الشعرية . والتيار الآخر يعكس الاعتقاد بأن العالم الواقعى المادى هو تجسيد رمزى لعالم الغيبيات ، أى أن عالم الروح وعالم المادة يتداخلان فى كلٍ أكبر يشكل كل شئ ، والترجمة الدرامية لهذه الفكرة تتخذ صورة الحفاظ على المستوى الواقعى مع إعطائه بعداً روحياً أو رمزياً ، يشكل معنى أبعد وأعمق وأكثر دواما للحدث الخارجى ، بحيث يصبح الحدث الخارجى العارض ، الخاضع لعنصرى الزمان والمكان العارضين ، رمزاً لحقيقة إنسانية ثابتة لا تخضع لأية متغيرات .

المستقبلية

فى عام ١٩٠٩ أعلن الإيطالى **فيليبو توماسو مارتينى** تكوين الحركة المستقبلية فى الفن والأدب عندما نشر وثيقته التاريخية الشهيرة «**إشهار تكوين وإعلان مبادئ الحركة المستقبلية**» . .

ورغم أن الحركة المستقبلية ترتبط أساساً فى أذهان الكثيرين بالفنون التشكيلية إلا أننا نجد أن روادها الأوائل قد أهتموا اهتماماً كبيراً بالدراما المستقبلية حيث قام رائدان أساسيان من رواد المستقبلية فى الفن التشكيلى وهما **جياكومو بالا** و **إمبرتو بوتشينى** بكتابة العديد من النصوص المسرحية التى أصبح لها الآن قيمة تاريخية كبيرة رغم قيمتها الفنية المحدودة .

وتتركز أهمية الحركة المستقبلية فى أنها كانت حركة رائدة فى عالم المسرح الأوربى ، شجعت التيار التجريبى والثورة على التقاليد المسرحية والدرامية المتوارثة ، مما أدى إلى نشأة مدارس أخرى تتميز بانفصالها عن الواقعية والموضوعية ، مثل الدادية والسيريالية والبنائية الروسية ومسرح العبث . وكان ظهور هذه المدارس له أكبر الأثر فى إثراء وتنويع الحركة المسرحية فى أوربا فى القرن العشرين حتى أننا نجد كاتبين مبدعين مثل **بيراندللو** و **ثورنتون وايلدر** يدينان بالكثير لمبادئ الحركة المستقبلية .

وقد تميزت مسرحيات الكتاب المستقبليين ، والتى بلغت ذروتها فى الشهرة والانتشار فى أواخر العشرينيات ، بتركيزها على

العالم الوجدانى الخاص للإنسان مما أكسب بعض هذه الأعمال صفات الشاعرية والرمزية . واهتم كتاب هذه المدرسة فى أعمالهم بتصوير الحالات النفسية ، وحالات الجنون خاصة ، بغرض إحداث نوع من الصدمة عند المشاهد ، وأيضًا لأنهم وجدوا مثل تلك الحالات الوجدانية المضطربة قالبًا مناسبًا لتجسيد المعانى الفلسفية والميتافيزيقية تجسيداً شاعرياً مستخدمين الرمز والاستعارة ، كما يتجلى ذلك فى مسرحية **مجانين متجولون** .

وقد نتج عن التركيز الشديد على النفس البشرية باعتبارها المكان الوحيد الذى يمكن أن يكون مسرحاً لأى أحداث حقيقية ظهور مسرحيات لا تنتمى إلى أى بيئة موضوعية ، سواء واقعية أو مُتخيلة ، مثل مسرحية **الملل** التى يظهر فيها بوضوح اهتمام الكاتب « بالتجسيد المسرحى » لرؤية خاصة ودقيقة لحالة نفسية .

ويصف **أنجلو رونيونى** مسرحيته هذه بأنها « النص المكتوب لحالة جسمانية » . وهذا النص كاملا لا يتعدى بضعة سطور هى :

مسرحية الملل

« المسرح : خلفية رمادية

يدخل رجل . واضح أنه متعب . يجلس ويتمطى على مقعد وثير - يغمض عينيه .. يُسمع صوت كمان ، موسيقى جنائزية غير مُنغّمة .

من بعيد يسمع طنين .

تنزل ستارة شفافة فى الخلفية من أعلى تُعتّم المكان .

فحيح مُلّح متواصل يُسمع من بعيد . .

يتوقف صوت الكمان . .

تتدلى من أعلى المسرح على اليسار علامة تعجب سوداء .

يتحول الفحيح إلى عواء مخيف .

أضواء زرقاء .

تزداد حدة الطنين .

فى الوسط تتدلى من أعلى علامة تعجب أخرى بالغة الطول .

تتوقف جميع الأضواء .

صمت تام .

تميل رأس الرجل (استغرق فى النوم) .

ظلام .

ســتار » .

وهكذا نجـد أنه قبل وصـول الحركـة السيـريالية إلى خـشبـة المسرح فـــى أوربـا بفترة قـام الكتاب المسـتقبليـون بتقـديم مادة

تتحدى العقل والمنطق المعروف بطريقة واضحة ، مجسدة ومباشرة ، لها منطقها الخاص ، كما لو كانوا يصورون العالم الخارجي تصويراً واقعياً .

وقد اعتمد الكتاب المستقبليون منذ بداية الحركة على عنصر مسرحي هام انتفع به أصحاب مدرسة الدادية من بعدهم وهو عنصر استفزاز المتفرج ، والمواجهة المباشرة ، والإنكار التام لمبادئ الوجود والأخلاق - أي العدمية .

ويظهر هذا العنصر بوضوح في أعمال **فرانسسكو كانجويللو** و **برونو كورا** و **إميليو ستيميللي** كما سنرى في النصوص التالية :

النص الأول كتبه **فرانسسكو كانجويللو** بعنوان **انفجار** ، ووصفه بأنه « تركيبه من عناصر المسرح الحديث » .

أما « الشخصية » فهي « عيار ناري » ، والمكان « طريق مهجور ، بارد ، ليلاً » ، والحدث «لحظة صمت - عيار ناري» .

ستار

ولا نجد مسرحية **كانجويللو** الأخرى بعنوان **ليس هناك كلب** أطول كثيرا من المسرحية السابقة :

« الشخصية : شخص لا وجود له

طريق بارد ، مهجور ، ليلا

كلب يعبر الطريق » .

ســتار

وربما كانت مســرحية **عمل سلبى** التى اشتــرك فى كتابتــها **برونو كورا و اميليو ستيميللى** أطول قليلا ، وهذا نصها :

« يدخل رجل ، يبدو مشغولاً مهموماً ، يخلع معطفه وقبعته ويمشى فى حالة هياج شديد وهو يردد عبارة :

شى عجيب ! غير معقول !

يستدير ناحية المتفرجين ، يبدو عليه الضيق لوجودهم ، يتقدم إلى مقدمة المسرح ويقول بلهجة قاطعة :

لا . . ليس عندى ما أقوله لكم على الإطلاق .

إنزلوا الستار . . . . .

ســتار

وتمثل هذه المسرحيات نوع العروض المسرحية التى كان الكتاب المستقبليون يقدمونها فى « أمسياتهم المسرحية » التى كانت تُعقد فى المسارح أو أحيــانا فى قاعات الفنون التشكيلية فى العــقد الثانى من هذا القرن .

وبمرور الوقت حاول الفنانون المســتقبليون تأكيــد انتمائهم إلى العــالم الخــاص الداخــلى للعــقل الإنســانى أو النــفس البــشــرية

وانفصالهم التام عن العـالم الواقعى أو الموضوعى وذلك عن طريق التخلى عن تكنيك الرمـز والاستعارة ، والنحو إلى التـجريد التام واللامنطق ، واسـتخـدام تكنيك التـأثير الحـسى المباشـر بدلا من الإيحاء .

ونرى هذا الاتجاه بوضوح فى مسرحية **تركيب التركيب** التى اشترك فى كتابتها **جوجليلمو جانيللى** و **لوسيانو نيكاسترو** وفيما يلى نصها :

« مسرح خال ، ممر طويل مظلم فى آخره مصباح أحمر يضئ ويطفئ من بعيد جدا .

ويظهر شعاع أبيض يفرش الممر كمّا لو كان بساطا بطول الممر .

تمر خمس ثوان .

عيار نارى من مسدس ، صرخة .

أصوات .

صيحات متداخلة .

وقفة .

ضحكات امرأة تتردد .

فى نفس الوقت نسمـع صوت باب يُفتح بعنف ويظهـر ضوء قوى باهر يخطف أبصار المتفرجين .

تنفصل الستارة الأمامية عن المسرح وتسقط » .

ورغم غرابة هذه المسرحية إلا أننا نجد أنها مازالت تحتفظ بالحد الأدنى من الترابط بين العناصر المسرحية التى تكونها مثل الترابط عن طريق التداعى بين الطلقة النارية والصرخة التى تليها. ولكن مثل هذا الترابط الوجدانى لم يستمر طويلا ، فمع تطور المستقبليين نجد أن بعض المسرحيات قد انتفى منها تمامًا مثل هذا الترابط ، واستُبدل بعلاقات تشكيلية بحتة ولا منطقية ، مثل تلك العلاقات التى نجدها بين التكوينات والألوان فى اللوحات التجريدية .

وربما كانت أكثر المسرحيات تعبيراً عن هذا الاتجاه التجريدى البحت ، الذى استقاه المستقبليون من الفن التشكيلى وحاولوا تطبيقه فى المسرح ، هى مسرحية **ألوان** التى كتبها **فورتيوناتو ديبرو** ووصفها بأنها « تركيبة مسرحية تجريدية » وكذلك مسرحية **الشهوانية الآلية** بقلم **فيليا** ومسرحية **الأيدى** والتى اشترك فى تأليفها كل من **برونو كورا** و **فيليبو توماسو مارينيتى** . وفى كل من هذه المسرحيات الثلاث نجد أن اللون ، والصوت ، والشكل الهندسى ، والحركة التشكيلية ، هى العناصر المسرحية الوحيدة .

فمثلا فى مسرحية **ألوان** يتكون المنظر من « حجرة مكعبة زرقاء خاوية ، ليس بها نوافذ أو أبواب » .

أما **الشخصيات** فهى « أربع فرديات مجردة » كما يصفها المؤلف :

١- الرمادى : من البلاستيك ، ديناميكى ، بيضاوى .

٢- الأحمر : من البلاستيك ، مستطيل ، ديناميكى .

٣- الأبيض : من البلاستيك ، له خطوط طويلة ورأس مدبب حاد .

٤- الأسود : متعدد الدوائر .

وتتحرك هذه الوحدات حركة آلية عن طريق خيوط مستترة . ولكل وحدة من هذه الوحدات صوت منفرد . فللأسود صوت عميق حلقى ، وللأبيض صوت حاد رفيع سهل الانكسار ، أما الرمادى فله صوت حيوانى ، وللأحمر صوت جهورى يشبه الهدير . ويستخدم المؤلف هذه الأصوات استخداماً صوتياً بحتاً بمعنى أنه ليس هناك حوار أو كلمات بالمعنى المفهوم . فكل وحدة على المسرح تُصدر أصواتًا لا معنى لها ، والاختلاف الوحيد يكمن فى نوعية وكثافة الصوت ، وفى استخدام كل وحدة لحرف متحرك معين يتكرر . فبينما يستخدم الأسود مثلاً حرف الواو فى كلمات مثل « دو ، بلوم ، دوم ، دون ، كوم ، يوم » ، نجد الأبيض يستخدم الياء فى كلمات مثل : زين ، تلى ، فين ، ولين ، وهكذا ، بحيث تكوّن المسرحية مجموعة متداخلة من الأصوات والأشكال بدون كلمة واحدة لها معنى .

ويستخدم المؤلف للإشارة إلى الحوار هنا عبارة « الكلمات المتحررة » - أى المتحررة من المعنى .

ورغم وجود نوع مما يمكن اعتباره حواراً مفـهوماً فى مسرحية فيليا المسماة الشهوانية الآلية ، إلا أن هذا الحـوار لا يـجئ على لسان أشخاص وإنما على لسان أشكال هندسية .

فخـشبة المسرح تتـكون من خمس مستـويات معدنيـة تتدرج ألوانها من الأسود إلى الرمادى إلى الأبـيض فى الخلفية ، ويتوسط المســرح شكل حـلزونى أحـمـر يمثل « الروح » ويـصل إلى أعلى المسرح ، وعلى اليـمين نجد شكلاً تكعيـبيًا يمثل « المادة » ، وعلى اليســار نجد أشكالاً هندسيـة متنوعة الألوان تُكوّن فى مـجموعـها شكل آلة وتمثل « الفعل » أو « الحركة » . ويصاحب كل شكل من تلك الأشكال إضاءة معينة : فللشكل الحلزونى ضوء أحمر يتحرك فى شكل ملتو إلى أعلى ، وللمكعب ضوء أبيض ينتشر فى دوائر متـوالية ، وللآلة ضـوء أصفر يأتـى فى اهتزازات منتظمـة بحيث يوحى بحركة تروس الآلة . وبينما تقتصر حركة الأشكال الهندسية على الفترات التى يتكلم فيهـا كل منهم ، نجد أن حركة المستويات المعدنية واهتـزازاتها مستمرة طوال العـرض . ويفسر الكاتب هذه الحركة بأنها تعبر عن تطور البيئة المستمر .

وعندما يرفع الستار يستخدم المؤلف ثلاث مراوح لإرسال تيار من الهواء البـارد من ثلاث جهات فى صالة العـرض ، ويصاحب ذلك صوت معدنى متنافر خافت جداً .

وكما تتـميز الشخصيـات التشكيلية - إذا جاز هذا التعـبير - بأضواء متميزة . . نجدها أيضا تتـميز بأصوات متنوعة ، فللحزون

صـوت حاد واضح مـذكّر ، والمكعب له صـوت عذب مـؤنث ، بينما تنطق الآلـة بصـوت رتيـب غيـر منغم ، لا شخـصية محددة له . وتتكون المسرحية ، من ثلاث مقاطع من الحوار ، لكل شكل هندسى مقطع ، وتنـتهى بأصوات مخـتلطة لا معنى لهـا ، بينما يتـحـرك كل شكل فى إطـاره المحـدد فى البـداية . . وتتـحـرك المستويات المسـرحية ويملأ المسرح تيار مـن الهواء الساخن بدلاً من الهواء البارد ، أما فقرات الحوار فهى كالآتى :

« **الحلزونى** (فى صوت رجل) : استحوذ الاهتمام بالتوسع الآلى على الرجل واستخدمت الحاجـة روح الحسية فى تكوين بيئة غنية ، وتـشبه رغـبة التـعويض الحـارة عند الإنسان فى ضـراوتها الذكور الذين نجحـوا فى إلغاء الأنا المسفلته على طريق المـستقبل ، أصبح كل شئ هندسى وواضح ولا يمكن الاستغناء عنه . يالروعة الجنس المصطنع الذى أحل السرعة مكان الجمال .

المكعب (فى صوت امرأة) : تتـعطش المادة العذراء التى لم يتم تكوينها بعد إلى الحب . تصيبنى نوبات من الرغبة الشديدة فى أن أستسلم لذراعى الروح العنيفتين - تلك الروح التى تعطينى قوة وحركة وخفة .

الآلة : الهدف هو الحركة . . الفعل . . الإنتاج . . التعديل . . التفوق على الذات . يشرب العـالم أكسجين الآلات ولا تشبع رئتيه ويغنى بصوت أقوى » .

ويصاحب صوت الآلة كلمات .. فرم تا ، فرم تا .. تاتا ، بينما تصاحب صوت الحلزون كلمات .. تى تا تم .. تى تا تم .

أما مسرحية **الأيدى** فتعتمد أساسًا على الحركة ، فأبطال المسرحية مجموعة متنوعة من الأيدى : أيدى رجل ، وامرأة ، وطفل ، وعامل ، وأيدى خشنة ، وأخرى ناعمة . وتقوم هذه الأيدى بحركات مختلفة من خلف ستار مشدود بطول مقدمة المسرح بحيث لا يظهر سواها ، وتقوم بحركات تعبيرية مختلفة تمثل حالات نفسية متعددة مثل العنف ، والدعاء ، والحنين ، والحزن الشديد ، والطفولة ، والمداعبة ، وتنتهى بكفى رجل يقومان بحركات تدل على الاستهزاء والسخرية الشديدة من المتفرجين وتسدل الستار .

وكان الكتاب المستقبليون يحرصون فى مسرحياتهم على مبدأ التلازم الزمنى لأحداث مختلفة ومؤثرات مسرحية متعددة، وكذلك على مبدأ تعدد الوسائل والمؤثرات المسرحية مما أدى إلى إدخال عناصر جديدة إلى المسرح مثل كشافات الإضاءة ، ومؤثرات حسية أخرى مثل المراوح والمحركات وخلافه . وكما رفض المستقبليون فى عروضهم العلاقة التقليدية بين المتفرج والعرض المسرحى بحيث حرصوا على تكسير الحائط الرابع الوهمى ، فنجد فى بعض المسرحيات صعوبة شديدة فى تمييز الممثلين من الجمهور ، كما حدث فى مسرحية **راديو سوكيبيا** التى كتبها **كانيووبللو** و **بترولينى** والتى مثلت وسط المتفرجين وليس على خشبة المسرح

عام ١٩١٦ . وفى مسرحية أخرى لكانيوويللو بعنوان الضوء يصعب جدا التفرقة بين الممثلين والمتفرجين ، ويتم استفزاز الجمهور لإخراج وتمثيل العرض بأنفسهم .

وتتجلى رغبة المستقبليين فى تكسير الحدود المعروفة والتقليدية للعرض المسرحى فى أوضح صورة فى فكرة انشاء «مسرح الهواء» . ابتدع هذه الفكرة طيار إيطالى يدعى فيديلى أزارى . وقد قام أزارى فعلاً بتقديم عروض هوائية فوق «بوستو أرسيتزيو» فى ربيع عام ١٩١٨ ، وأصدر فى العام التالى لذلك - فى ١٤ إبريل فى مدينة ميلان - إعلانًا بانشاء ما أسماه «بمسرح الهواء المستقبلى» . وعاونه فى ذلك مؤلف موسيقى طليعى يدعى لويجى روسولو ، وكان دور روسولو ينحصر فى محاولة التحكم فى الأصوات التى تصدرها محركات الطائرات بحيث تصبح الطائرة آلة موسيقية متحركة أثناء طيرانها .

والدراما الهوائية المستقبلية كما تخيلها أزارى مسرحها السماء ، وشخصياتها الطائرات التى يمكن التحكم فى أصواتها وحركتها بحيث تقدم عرضاً درامياً كاملاً من حوار ورقص وتمثيل صامت ومؤثرات سمعية وبصرية . وقد قام أزارى فى إعلان إنشاء مسرحه الهوائى بتصنيف أنواع الطائرات وتحديد الأنواع التى تقوم بدور المرأة وتلك التى يمكن أن توحى بالرجولة .

كما قام بتصنيف الحركات وإيحاءاتها المختلفة : فمثلاً الحركة الصاعدة توحى بالأمل والطموح ، والحركة الدائرية السريعة توحى بالضيق ، والحركة الهابطة السريعة كسقوط أوراق الخريف توحى

بالحنين والحزن . . الخ . كما اقترح **أزارى** استخدام الدخان الملون والروائح المعطرة والأوراق الملونة والصواريخ والعرائس والبالونات المتعددة الأشكال فى مثل هذه العروض. هذا إلى جانب استخدام أصوات الطائرات المعدّلة بحيث تكون مُنغّمة ومعبرة .

واقترح **أزارى** أن يقوم بكتابة نصوص العروض الهوائية - أو ، كما أسماها القصائد الهوائية - أساطين الحركة المستقبلية مثل **كورا** و **ستيميللى** و **مارينيتى**وغيرهم .

نستطيع أذن أن نقول أن الكتاب المستقبليين كانوا يهدفون إلى تكسير قواعد المسرح التقليدية التى كانت فى نظرهم تمثل زيف المنطق والأفكار والتقاليد المتوارثة ، وفى محاولتهم لإيجاد تقاليد مسرحية جديدة حاولوا إنشاء ما أسموه بتجربة مسرحية تركيبية متكاملة ، تتميز بالديناميكية ، وعنصر التلازم الزمنى ، والتداخل بين الأحداث والمشاعر والتجارب ، وحاولوا استغلال جميع إمكانيات المسرح الحسية ، والاستغناء عن الشخصية واللغة والحدث بالمعنى التقليدى فى الدراما .

واعتبر المستقبليون أعمالهم وحدات شعورية منفصلة تماما عن الواقع والمنطق التقليدى ، وتتمتع بقوانينها الخاصة ومنطقها الخاص ، الذى يختلف تماما عن - بل ويهدف إلى تكسير قواعد التفكير المنطقى المعتاد . وكانت مادتهم المفضلة هى النفس البشرية بحالاتها الوجدانية المتعددة ، وقواها الخفية ، وجنونها ، ونحوا إلى التجريد والتجسيد المسرحى فى تصوير كل ذلك .

الداديــة

فى ابريل عام ١٩١٦ ، فى مقهى صغير بمدينة زيورخ ، التقى ثلاثة أصدقاء : شـاعر ألمانى يدعى تريستان تزارا ، ورسام ألمانى يدعى هانز آرب ، وشاعر مجرى اسمه ريتشارد هولسنبك .

تطرق الحـديث بين الأصـدقـاء الثـلاثة إلى طبـيـعـة الفن ، واحتدمت المناقشة ، والتقى الفنانون الثلاثة فى إحساسهم بالسخط الشديد على الخلط والقصور الذى ساد مفاهيم طبيعة الفن فى ذلك الوقت . ووجـد الثـلاثة أن الحل الأمثل هـو تكوين حركـة فنيـة جـديدة يجدون فـيهـا متنفـسًا لآرائهم وتصـوراتهم بالنسبـة للفن وطبيعته ودوره . وواجهتـهم مشكلة البحث عن اسم لهذه الحركة فما كـان منهم إلا أن أسرعوا باحضار دائرة المعـارف واعتنقوا أول كلمة صـادفتهم وكانت كلمـة (دادا) وتعنى بالفرنسيـة « حصان خشبى » وبالروسية « نعم . . نعم » .

وشـهدت مدينة زيـورخ فـى نفس العام أول عرض مسـرحى لحركة الدادية . وفـى ذلك العرض التاريخى حدث التالى :

« وقف الفنانون الثلاثة على المسرح وأخذوا يحدثون ضجيجًا مفزعًا مستخدمين مفاتيح معـدنية وصناديق خشبية . واستمروا فى ذلك حتى ثارت ثائرة المتفرجين . بعـد ذلك شرع صوت فى إلقاء بعض قـصائد آرب ، وكـان الصوت يأتى من تحت قـبـعة بالغـة الضـخامـة على شكل قـمع سكر . بيـنما أخـذ هولسنبك ينشد

قصائده فى صوت أقرب إلى الصراخ ما يفتأ يعلو ويعلو تصاحبه فى إيقاع منتظم دقات **تزارا** على طبلة كبيرة . تلى ذلك رقصة قام بها **هولسنبك** و **تزارا** قلدوا فيها حركات وأصوات صغار الدببة ، ثم ارتديا جوالين وقبعتين طويلتين ومشيا يتبختران بين المتفرجين».

(من كتاب **روح الدادية فى الرسم** للكاتب **چورج هوجنيه** - ١٩٣٤) .

والدادية كما يتضح من ذلك العرض الغريب حركة تهدف إلى تحطيم القواعد المعروفة للفن ، بل وللعقل والتفكير أيضاً . فهى أساسا حركة هدم تقوم على اعتناق مبدأ العدمية ، وإنكار جميع القيم والمفاهيم والأشكال الفنية والأنظمة ، سواء المتوارث منها أو المعاصر . وربما كان هذا هو السبب الأساسى الذى أدى إلى قصور واضمحلال تلك الحركة الفنية ، وعجزها عن إنتاج أعمال مسرحية لها صفة الاستمرارية ، إذ أن الداديين قد ركزوا كل جهودهم فى الهدم دون محاولة لإيجاد مفاهيم وقيم فنية أو أخلاقية أو اجتماعية جديدة لتحل محل القيم والمفاهيم المرفوضة ، حتى أننا نجد أنه عندما حاول بعض اتباع الدادية الاتجاه بالحركة نحو الإيجابية - بمعنى إيجاد مفاهيم جديدة تهدف إلى بناء أشكال فنية جديدة - لم يجدوا مفرًا من نبذ الحركة كلية وتأسيس حركة جديدة على أيدى **أندريه بريتون** وهى الحركة السريالية ، أى أن الدادية نشأت كحركة عقيمة لا تحمل فى طياتها بذور التجديد والتطور .

وتتجلى النزعة العدمية الهدامة للدادية بوضوح فى الإعلان الشهير بانشاء الحركة الدادية الذى صدر عام ١٩١٨ وفيه يقول **تريستان تزارا** :

الدادية : هى كل نتاج للسخط من شأنه أن يدمر فكرة الأسرة .

الدادية : هى كل احتجاج بالقبضات يوجه الإنسان فيه كل كيانه نحو التدمير والتخريب .

الدادية : هى التعرف على واعتناق جميع الوسائل والأساليب التى يرفضها ذلك المجتمع المخزى الذى يؤمن بالحلول الوسط واللياقة فى التصرفات .

الدادية : هى إلغاء المنطق باعتباره النغمة العقيمة التى يرقص عليها من يفتقرون إلى ملكة الإبداع .

الدادية : هى عدم التورع عن استخدام كل شئ وجميع الوسائل والمشاعر والرؤى والمبهمات فى الحرب لإرساء قواعدها .

الدادية : هى الغاء الذاكرة .

الدادية : هى الغاء علم الآثار والتاريخ القديم .

الدادية : هى الغاء فكرة المستقبل .

الدادية : هى الإيمان المطلق التام بكل إله تتفتق عنه القريحة بصورة تلقائية .

ونجحت كـلمات **تريستان تزارا** النارية فى اجـتذاب اهتـمام المثقـفين فى ذلك الوقت حيث صـادفت مبادؤها العـدمية الهـدامة هوى فى نفوس الكثيرين منهم ، خـاصة أولئك الذين اشتركوا فى « المذبحة المسماة بالحرب العالمـية الأولى » والتى كان لها أكبر الأثر فى زلزلة إيمانهم بالعقائد والقـيم والمبادئ والنظم التى كانوا يؤمنون بها من قبل .

ومن أمثال هؤلاء المثقفين **أندريه بريتون** الذى قام فور عودته من الحرب بانشاء مجلة أسمـاها « ليتراتور » (الأدب) بمعاونة **لوى أراجون** و **فيليب سوبول** . وكان **لبريتون** الفضل فى إضفاء قدر من الجدية على الحـركة الدادية عندما اقتـرح على زملائه أن ينضم **تزارا** إلى هيئة تحرير المجلة .

وأدى ذلك إلى ازدهار الحركة الداديـة ، ونشط أعضاؤها فى إصدار الإعلان تلو الإعلان لإشهار مـبادئها ، وفى إقامة المعارض الفنيـة وتقـديم العروض المسـرحـيـة ، كمـا حـدث فى معـرض (الكولاج) أقامة **ماكس إرنست** فى أحد الحوانيـت حيث أقام فى القبـو مسرحـاً صغيـراً . وحين أطفئت الأنوار ترامت إلى أسـماع الرواد أنات مخيفة من خلف باب خفى، بينما اختفى أحد الداديين خلف أحد الدواليب وأخـذ يقذف المتفرجين باقـذع السباب . فى تلك الأثناء كان الداديون - الذين كانوا يقدمون عروضهم بأنفسهم دون اللجوء إلى ممثلين محترفين - يسـيرون بين المتفرجين متحللين من ربطات العنق ومرتديـن قفازات بيضـاء . كان **أندريه بريتون**

يمضغ أعوادا من الثقاب ، أما **ريبيمون ديسان** فكان يصرخ قائلا بأن السماء تمطر على إحدى الجماجم ، وكان **أراجون** يموء كالقطة ، بينما انشغل **سوبول** مع **تزارا** بلعب «الاستغماية» بين المتفرجين . أما **بينجامين بيريه** و**شارشون** فكانا يتصافحان بصورة آلية منتظمة مرة كل دقيقتين . وعلى عتبة الباب وقف **جاك ريجو** يعد بصوت عال العربات المارة بالشارع واللآلئ على صدور المتفرجات .

لقد ركز الداديون كل جهودهم على السخرية من كل الأحداث مهما بلغت جسامتها ، وفى الهجوم على جميع معتقدات الطبقة البرجوازية ، وعلى إحداث الشغب والفضائح فى كل مكان . ولم ينج من هجومهم وتسفيههم أى شئ حتى ذواتهم ، فمثلا ، بالرغم من أن **تزارا** كان أساسًا شاعرًا نجده فى أحد الصالونات الأدبية التى دعى إليها يتمادى فى تسفية فكرة إلقاء الشعر فيمسك بإحدى المقالات فى الصحيفة اليومية ويقرؤها كما لو كانت شعرًا يصاحبه فى ذلك إيقاع من الأجراس والشخاليل ، ويستمر فى ذلك حتى يثور الحاضرون من قسوة الضجيج . أما لوحات الرسامين منهم فكثيراً ما كانت تعلوها جمل وعبارات فاضحة . وحتى الدعوة لمبادئهم نفسها تعرضت للسخرية والتسفيه من جانبهم إذ كثيرا ما كانوا يجمعون الناس ليقرأوا عليهم إعلان مبادئهم ويقومون أثناء ذلك بقذف المستمعين بالبيض الفاسد والعملات المعدنية .

واستمر الجنون ، ذلك الجنون الذى وصفه **هانز آرب** بأنه نتاج جنون العصر - جنون يحاول بوسائله الاستفزازية القاسية التعبير عن الغضب الجامح والحزن المرير لما أصاب البشرية من معاناة وإذلال ، جنون يهدف إلى تغيير جذرى فى كل شئ . وبلغ الجنون ذروته عندما رسم **مارسيل دوشامب** لوحة **الموناليزا** وأضاف لها شارباً ، وانشغل **شفايتزر** بجمع القمامة بغرض استخدامها فى الرسم والنحت ، واتبع **هانز ريشتر** عادة الرسم ليلاً حتى لا يتمكن من تمييز الألوان التى يستخدمها .

بيد أن الجنون استنفد طاقاته . وبدأ بعض الداديين يشعرون بالملل من تلك المحاولات المستمرة العقيمة لاستثارة واستفزاز المجتمع ويحسون بالاحباط لافتقار الحركة إلى أى قيم إيجابية فكرية أو مسرحية . وكان **بريتون** من أوائل الداديين الذين قرروا الانفصال عن الحركة . وكان عقابه على ذلك « علقة ساخنة » تلقاها أثناء تظاهره ضد أحد عروض **تزارا** فى يوليو عام ١٩٢٣ . بعد ذلك أعلن **بريتون** انفصاله رسميا عن الحركة الدادية بأن أصدر منشوراً بعنوان « فلتترك كل شئ » دعا فيه الفنانين إلى نبذ الدادية ، وتلا ذلك بخطوة إيجابية وهى تأسيس حركة جديدة أسماها (السريالية) تمجيدا **لجيوم أبولينير** الذى كان أول من ابتدع لفظ السريالية فى مجال الفنون عندما وصف مسرحيته **أثداء تيريسياس** ، والتى عرضت عام ١٩١٧ ، بأنها دراما سيريالية . وكان **أبولينير** قد توفى فى عام ١٩١٨ .

وإذا استعرضنا إنجازات الحركة الدادية منذ نشأتها عام ١٩١٦ ، وحتى بداية اضمحلالها عامى ١٩٢٢ - ١٩٢٣ ، نجد أنها قد قدمت فى مجال الفن التشكيلى بعض الأعمال الفنية العظيمة ، ولكنها فشلت فى مجال المسرح والدراما ، ولم يبق لها سوى قيمة تاريخية ، وربما كان إنجازها الكبير هو الهدم . فقد ساهمت مع بعض الحركات الفنية المواكبة لها فى كسر الجمود الذى أصاب الأشكال المسرحية ، وفى إرساء روح التجريب والاستكشاف . ومما يستحق الذكر أيضا أن الداديين قد استحدثوا بعض العناصر المسرحية التى استمرت بعد اضمحلال الحركة ولعبت دورها فى المسرح المعاصر : ومن هذه العناصر استخدام الرموز الشاذة المضحكة ، وإدخال لغة العبث إلى المسرح ، وتعرية البلاغة الأدبية الكاذبة ، اللا درامية ، وكسر الحواجز بين الكاتب والممثل والمتفرج ، وإدخال الحوار الكونترا بنطى إلى المسرح - بمعنى قيام عدة أشخاص على المسرح بإلقاء مونولوجات أو إصدار أصوات مختلفة فى وقت واحد بحيث تكون النتيجة تركيبة شعورية موحدة ، وهو تكنيك مستعار من الموسيقى أصلاً .

وربما كان فشل الدادية فى الخلق الإيجابى ، أو تقديم رؤية مسرحية متكاملة ، وانغلاقها فى مدار العدمية أمراً محتوماً أملته طبيعة العصر ، أو الفترة الزمنية المحددة التى نشأت فيها ، وهى سنوات الحرب العالمية الأولى .

السريالية

تدين الحركة السريالية باسمها للكاتب الفرنسى **جيوم أبولينير** . كـان **أبولينير** أول من استـخـدم هذا اللفظ فى وصف عـمل مسرحى : كان هذا العمل عرضاً درامياً مـوسيقياً راقصاً كتبه **جان كوكتو** وأخرجه **دياجليف** وصمم مـلابسه ومناظره الفنان الشهـير **بابلو بيكاسو** ووضع مـوسيـقاه المؤلف المعـروف **ساتى** وصمم رقصاته **ماسين** وعرض فـى باريس عام ١٩١٧ بعنوان **الاستعراض** .

وفى شهـر يونيو من نفس العام قـدم مسرح « تيـاتر موبيل » مسرحية **أثداء تيريسياس** ، وكـان **أبولينير** قد بدأ كـتابتهـا عام ١٩٠٣ تحت تأثير سلسلة المسرحيـات التى كتبها **ألفريد جارى** فى أعوام ١٨٩٦ و ١٨٩٧ و ١٨٩٨ حول شخصية وهمية تدعى **الملك أوبو** وأثارت ضجـة كبيـرة فى الأوساط المسرحـية الباريسـية آنذاك لجدتها وغرابتها .

وقد أرفق **أبولينير** بمسرحية **أثداء تيريسياس** عندما أتمهـا عام ١٩١٧ مقدمة وصف فيها المسرحية بأنها « دراما سيريالية » .

وفى البـرولوج الذى يسـبق رفع السـتـار يقـول **أبولينير** إن مسـرحيتـه تهدف إلى « بعث روح جـديدة فى المسرح - روح من المرح والترف - بدلا من روح التشاؤم التى سيطرت عليه قرابة قرن كامل والتى ملها الجمهـور » . ويضيف أنه كان يتمنى لو عرضت

مسرحيته هذه « على مسرح دائرى به خشبه مسرح تتوسط المتفرجين وأخرى تحيط بهم فى شكل دائرى حتى يتشنى توزيع ومزج كل عناصر العرض - من أصوات وحركات وألوان وصرخات وموسيقى ورقصات وشعر وأكروبات وكورس ولوحات وديكورات مركبة - مزجًا سليمًا قد يتنافى مع الواقع المألوف ، ولكنه يتفق ومتطلبات هذا النوع الجديد من الفن الذى نقدمه ».

وعندما ترتفع الستار عن المشهد الأول من هذا العرض نرى منظرًا يمثل أحد الأسواق فى زنزبار ، وفى خلفية المسرح يجلس أحد الممثلين (الزوج) مرتدياً الملابس القومية لأهل زنزبار وتحيط به مجموعة من الآلات الموسيقية التى تُستخدم أثناء العرض لمصاحبة الممثلين ، وفى مقدمة المسرح تقف تيريزا (الزوجة) ترتدى ثياب ربة منزل عادية وتحمل فى يدها رموز مهنتها مثل بعض أوعية الطهى ومكنسة .

يشتبك الزوجان فى نقاش حاد نعلم منه أن تيريزا قد ملت وضعها كزوجة تقوم بأعمال المنزل ، وتطيع زوجها ، وتنجب الأطفال ، وأنها تريد أن تهجر كل هذا لتصبح جندياً أو ربما عضواً بالبرلمان أو وزيراً . وتقرر تيريزا أنها لن تنجب بعد الآن . وفى اللحظة التى تتفوه فيها بهذه العبارة تنبت لها فجأة لحية وينفرج ثوبها لتظهر منه بالونتان ضخمتان مكان ثدييها فتسحبهما من الثوب وتلقى بهما إلى المتفرجين ، وتعلن أنها قد أصبحت منذ تلك اللحظة رجلاً وأن أسمها قد أصبح تيريسياس . ولا تكتفى تيريزا

بذلك بل ترغم زوجها على أن يستبدل ملابسه بملابسها ، وترفض أن تنصت إليه عندما يحدثها عن أهمية الإنجاب . وفى النهاية يقرر الزوج أن يتولى هو مهـمة الحمل والولادة مادامت هى ترفـضها . وهنا يتدخل الكورس بينهما بالغناء وينتهى هذا المشهد .

وفى المشـهد الثـانى نرى الزوج جـالسـاً فى السوق وحـوله أطفالـه يرضعهم ، ونعلم أنه قـد تمكن فى ثمانية أيام من إنجاب ما يـربـو على أربعة آلاف طفل (٤٠٥١) وأن المجاعة تتهـدد البلاد بسبب نشاطه هذا . ثم يتقدم شرطـى إليه ليقبض عليه ويضع حداً لهذا الموقف الخطير - وهذا الشرطى مصاب بالعقم . وهنا تتدخل عرافة بينهـما وتمتدح خصوبة الزوج ونكتـشف فى النهاية أن هـذه العرافة مـا هـى إلا تيريزا نفسها وقـد عـادت نادمـة على تمردها . وبسرعـة يتحـول موقف الشـرطى ، ويعد الزوجين أنـه هو الآخر سوف ينجب العديد من الأطفال ثم يهبط الستار !

والطريف أنه عندما هاجم الـنقاد العرض لغرابتـه قام **أبولينير** بكتابة مقدمة جديدة للمسرحيـة إدعى فيها أن مسرحيته تهدف إلى الدعوة لرفع مـعدّل الإنجاب لأن « رخـاء الأمة يتـوقف على عدد أطفالها ! » واعتبر البعض هذا الرد نكته خبيثة من جانب **أبولينير**. ومهما يكن من أمر مضمـون المسرحية فقد كانت **أثداء تيريسياس** من حيث الشكل أول مسرحيـة سيريالية . ولم يُقدّر **لأبولينير** أن يقوم بتـجارب أخرى فى هذا الشكل المسـرحى الجديد إذ أنه توفى فى العام التالى ١٩١٨ .

ورغم ريادته فى هذا المجال فإن السريالية لم يُقدّر لها أن تنتشر وتزدهر كحركة فنية على يدى **أبولينير** . ولكن كان الفضل فى ذلك لكاتب مسرحى آخر هو **أندريه بريتون** الذى بدأ بمناصرة الدادية وانتهى بالثورة عليها .

ففى عام ١٩٢٢ بدأت شعلة الدادية تخبو سريعا . وكان أحد الأسباب الرئيسية لهذا هو أن **بريتون** نفسه – الذى كان له الفضل فى ازدهارها – قد بدأ يضيق بها لعقمها الفكرى ، وفشلها فى أن تثمر فنا ذا قيمة ، ولتركيزها المستمر العقيم على التحطيم والعدمية ، والتماسها أساليب الهجوم والعنف والإثارة الرخيصة دونما هدف معين .

وما أن حلت السنة التالية إلا وكان **بريتون** قد انفصل نهائيا عن **تزارا** – الدادى الأكبر – بعد معركة عنيفة بالأيدى والقبضات (تليق حقًا بأسلوب الداديين !) . وإثر تلك المعركة الحامية أعلن **بريتون** انفصاله رسميًا عن الحركة الدادية فى مقال شهير بعنوان « أتركوا كل شئ » . ثم قام بتكوين فريق جديد أسماه « بالسرياليين » تكريما لذكرى **أبولينير** .

وقد كان للعالم النفسى الشهير **سيجموند فرويد** – خاصة نظرياته المتعلقة بالأحلام واللاشعور – أكبر الأثر فى انصراف **بريتون** عن الدادية وتحوله إلى السريالية . كان **بريتون** قد بدأ حياته بدراسة الطب ، ولذلك فقد كان من الطبيعى أن يتابع

باهتمام اكتشافات ونظريات **فرويد** فى عالم الطب النفسى ، وفعلاً قام بعدة مراسلات مع ذلك العالم النفسى الشهير أعقبها بزيارة إليه فى مدينة فيينا عام ١٩٢١ حيث تم اللقاء بينهما .

وقد كان لهذا اللقاء أكبر الأثر فى نفس **بريتون** إذ أدرك - كما أدرك كثير من معاصريه مثل **أندريه جيد** و **د. هـ. لورنس** وغيرهم - أن نظريات **فرويد** عن الأحلام واللاشعور تعطيه رؤية أكثر ثراءً وجدة . ورأى **بريتون** أن اعتناق نظرة **فرويد** للنفس البشرية وجوانبها الخفية كفيل بإنتاج تجارب فنية خلاقة - ثرية وثورية فى نفس الوقت - إذ أن الرؤية الجديدة للإنسان التى حطمت النظرة التقليدية المنطقية المحددة سوف تستدعى بالضرورة قوالب فنية جديدة لبلورتها .

وتمخض إيمان **بريتون** الجديد عن « إعلان إنشاء ومبادئ الحركة السريالية » الذى نشره عام ١٩٢٤ والذى عرض فيه مبادئ السريالية كرؤية فى الحياة وفى الفن .

يقول **بريتون** فى إعلانه الشهير أن السريالية هى : «الحركة الذاتية للنفس بصورة نقية خالصة» .

ويقول :

« إن التعبير عن هذه الحياة النفسية المستقلة عن أى شئ خارجها - سواء جاء هذا التعبير حديثاً أو كتابة - سوف يكشف لنا الوظيفة الحقيقية لملكة الفكر » .

ويقصد **بريتون** بالفكر هنا شيئًا مختلفًا تمامًا عن التفكير العقلانى المنطقى الموجّه - فالفكر - كما يراه - هو « حركة الذهن الحر بعيداً عن قيود العقل والمنطق والقيم الجمالية والأخلاقية المتوارثة » .

ويمضى **بريتون** ليقول : إن السريالية « ترتكز على الإيمان بأن الأحلام أقوى من أى شئ آخر وبأن بعض أنماط التداعى الذهنى التى لم يعرها أحد اهتماماً من قبل قادرة على أن تكشف لنا حقائق أبعد عمقاً من تلك الحقائق التى نصل إليها عن طريق العقل والمنطق » (« إعلان السريالية » كما نشر فى كتاب **السريالية** تأليف **باتريك ولدبرج** ، نيويورك - ١٩٦٥) .

لهذا تدعو السريالية إلى إطلاق العنان للفكر والذهن تماما ، وعدم تقييده بقواعد وغايات معينة ، وترى أن ذلك كفيل بتخليص الذهن من جميع الأنماط الآلية المفروضة عليه وإعادة الحركة الذاتية الحرة إلى النفس .

وانضم إلى **بريتون** فى حركته الجديدة كل من **بول الوار ولوى أراجون وانتونين أرتو وأندريه ماسون وبيريه وبيكابيا** .

وحاول هؤلاء جميعا أن يجدوا أشكالاً ووسائل فنية جديدة للتعبير عن اللاوعى وتوصلوا - بصورة واعية تماماً - إلى نظرية جديدة فى الجمال تجمع بين رومانسية القرن التاسع عشر كما نجدها فى **رامبو ومالارميه** وبين الطبيعة العلمية التى سادت القرن

العشرين . وامتد هذا التيار فشمل التصوير والنحت ثم الشعر والنثر ثم المسرح والسينما .

كان **بريتون** يحلم بنوع من الأدب يعكس حياة النفس فى الأحلام والغيبوبة والنوم . ولتحقيق هذا النوع من الأدب ابتدع «تكنيكًا» أو تدريبًا جديدًا أسماه «أوتوماتيزم» - «الحركة الذاتية» . كان هذا التكنيك يهدف إلى محاولة اقتناص وفهم المعانى والصور التى تتداعى فى الذهن بصورة عفوية مشتتة ، وكانت وسيلته هى إملاء الأفكار والكلمات والصور التى ترد إلى الذهن دون أى تدخل من العقل الواعى ، ودون إدخال أى تعديل عليها - أى توخى التلقائية التامة فى التعبير . وكان **بريتون** لا يرى فى هذا التكنيك وسيلة لاستحضار الخيال اللاواعى للفنان فقط إنما أيضًا وسيلة لإخصاب وتغيير هذا الخيال .

وعلى هذا كان **بريتون** ينصح الكتاب والشعراء بالكتابة السريعة « الغريزية » ، وبالتسجيل المستمر لجميع ردود الأفعال التى يمرون بها، وبالعزوف تماماً عن محاولة الكتابة بصورة واعية، إذ أن الصدفة وحدها - كما يقول - خليقة بإحداث « تدفق اللاوعى » الذى كان يعتبره المادة الوحيدة للفن :

« دع أحداً يحضر لك أدوات الكتابة . واجلس فى مكان مريح يتيح لك الاسترخاء التام بحيث يستطيع الذهن أن يركز على نفسه دون أى تدخل من الوعى والعالم الخارجى . ضع نفسك فى حالة تامة من السلبية واشحذ أجهزة الاستقبال فيك . ثم أبدا

الكتابة - سريعاً ودون تردد ، ودون أى فكرة أو موضوع مسبق . لا تحاول أن تتذكر أو تعيد قراءة الكلمة أو الجملة السابقة . . . ستسعى اليك الجمل بنفسها » .

(**تاريخ السريالية** : تأليف **موريس تادو** - ترجمة **ريتشارد هوارد** - نيويورك ١٩٦٧) .

ولجأ كثير من السرياليين إلى التنويم المغناطيسى وإلى تناول العقاقير التى تجلب حالات الهذيان والغيبوبة حتى يحققوا الهروب الكامل من سلطان العقل الواعى الذى لا يمكن للفنان فى ظله الوصول إلى تلك المنطقة الغامضة من النفس البشرية - منطقة تلاقى وتوحد الأضداد - الجمال والرعب ، الجنس والسادية ، الحياة والموت . الماضى والمستقبل ، الانتشاء والإحباط ، الواقع والخيال ، الحلم واليقظة - تلك المنطقة التى اعتقد السرياليون أنها تحوى الحقيقة الخالصة للنفس البشرية ، والتى وصفها **بريتون** فى « إعلانه » التالى عام ١٩٢٩ بأنها « تحوى السر الغامض والحقيقة المطلقة للنفس البشرية » .

وكان من الطبيعى أن يتبع **بريتون** دعوته إلى توسيع مدارك النفس والوعى ، وتحرير الذهن من سلطان العقلانية والمنطق والأفكار الموروثة ، بالدعوة إلى تحرير كل شئ ، فأعلن ثورته على المجتمع التى قرن فيها كلمة السريالية بكلمة الثورة فى ٢٧ يناير عام ١٩٢٥ ، والتى وصف فيها السرياليين بأنهم « أخصائيون فى الثورة » - خاصة على الطبقة البرجوازية .

وكتب **أراجون** يقول : « أيهـا العالم الغـربى ! أنت محكوم عليك بالموت . وليستجب الشـرق - عدوك المحيق - إلى صوتنا . سوف نبـذر بذور الفوضى فى كل مـكان » . وكتب **إلوار** « ليس هناك ثورة كاملة، هناك فقط ثورة دائمة. ليس هناك نظام ثورى ، هناك فقط الفوضى والجنون » .

واتبع السـرياليـون فى ثورتهم على المجتـمع نفس أسـاليب الداديين من مظاهرات وأفعال تنافى العرف .

ورغم عدم جدوى الجـانب الثورى للحركة السرياليـة نجد أنها كـحركـة فنية قـد استمرت رغم جـمـيع الاضطرابات السيـاسية والاقتصادية التى مرت بها أوروبا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، فنجد السرياليين يقيمون معارض لأعمالهم فى نيويورك عام ١٩٤٢ وفى باريس عام ١٩٤٧ .

وإذا استـعرضنا إنجازات الحركـة السريالية فى الفنون المخـتلفة نجد أن حـصادها فى الإنتاج المسرحـى كان ضيـئـلاً إذا قورن بالفن العظيم الذى أثمرته فـى مجال التصوير والشعر . وربما يرجع ذلك - كمـا يقول الناقد الشهـير **مارتن إسلن** - إلى أن فن الكـتـابة المسرحـية يتطلب قدراً من الوعـى أكثر من الفنون الأخـرى بحيث يصعب على الكاتب المسـرحى أن يكتب عملاً يعتـمد تماماً على « تكنيك الحركة التلقائية الذاتية الذى ابتدعه **بريتون**» **(مسرح العبث** - لندن ١٩٦٢) .

وكانت مسرحية **الدولاب ذو المرآة . . . ذات مساء جميل** ومسرحية **أسفل الحائط** التى نشرهما **لوى أراجون** معاً عام ١٩٢٤ من طلائع المسرح السريالى . والمسرحيتان لا يمكن اعتبارهما أعمالاً فنية عظيمة بأية حال . فالأولى مجرد «اسكتش» ممتع يقوم على فكرة تقليدية تكسر من تقليديتها جدة العرض وغرابته : فعند رفع الستار نرى خليطاً غريباً من الشخصيات على المسرح : نرى جندياً يلتقى بامرأة عارية تماما . ثم يظهر رئيس الجمهورية فى صحبة جنرال زنجى . ثم تتقدم من رئيس الجمهورية توأمتان ملتصقتان وتتوسلان إليه أن يسمح لهما بالزواج دون أن ترتبط واحدة منهما بالأخرى ! ثم يعبر المسرح رجل يركب دراجة بثلاث عجلات وله أنف بالغ الطول لدرجة أنه يضطر إلى رفع رأسه عاليًا كلما أراد الكلام . ثم يتقدم **تيودور فرانكل** - وكان من أعضاء الحركة السريالية - إلى الجمهور ليقدم لهم شخصية الجنية الطيبة .

وبعد تلك المقدمة أو « البرولوج » تبدأ المسرحية بمشهد تقليدى وهو عودة الزوج المتعب من العمل إلى بيته ليجد زوجته فى حالة من الاضطراب الشديد مما يثير شكوكه . فالزوجة تنظر بتوتر شديد إلى دولاب فى جانب من المسرح وترجو زوجها ألا يقترب منه أو يفتحه . ويستمر المشهد فى التصاعد حتى يصبح الجو مشحونًا تمامًا بالتوتر والغيرة والإثارة الجنسية . ثم يختفى الزوجان فى الحجرة المجاورة وأخيراً ، وبعد فترة من الصمت الرهيب ، يظهر الزوج وملابسه غير مهندمة ، ثم يتجه إلى

الدولاب ويفتحه فإذا بموكب عجيب يخرج منه يضم كل الشخصيات التى قابلناها فى « البرولوج » . وينتهى العرض بأن يتقدم رئيس الجمهورية ويغنى أغنية لا معنى لها .

أما المسرحية الثانية **أسفل الحائط** فهى عبارة عن حدث تقليدى تتخلله فقرات سريالية . والحبكة الأساسية تغرق فى الرومانسية إلى حد يثير السخرية . فهى تقدم لنا شاباً تركته حبيبته يتجه إلى فندق صغير فى الريف ليداوى جراح قلبه وهناك تقع خادمة بالفندق فى حبه ، ثم يجبر هذا الشاب الخادمة على أن تنتحر حتى تثبت له حبها بصورة تقطع كل شك . وفى الفصل الثانى نجد بطلنا فردريك وحبيبته الجديدة يهيمان على غير هدى فى جبال الألب العالية . وتنتهى المسرحية بأن يلتقى البطل فردريك بالراوى الذى صاحب جميع مشاهد المسرحية ويكتشف فيه « قرينه» .

ورغم الفقرات السريالية التى تتخلل العرض كالظهور المفاجئ اللامنطقى لمجموعة عمال باريسيين فى زيهم الموحد ، وكظهور الجنيات على المسرح ، فالمسرحية تنتمى أساسًا إلى المسرح الرومانسى الذى عهدناه فى كتابات **فيكتور هيجو** و **ألفريد دى موسيه** .

بعد ذلك تعاون كل من **أراجون** و **بريتون** فى كتابة مسرحية بعنوان **كنوز اليسوعيين** - تلك المسرحية التى حاول كل منهما أن

يتبرأ منها بعد انشقاق **أراجون** عن الحركة السريالية . وربما كان الشئ الوحيد الجدير بالذكر فى هذه المسرحية هى أنها تنبأت بقيام الحرب العالمية الثانية . ولم يفت **بريتون** أن يستغل تلك النبوءة التى صدقت فى تأكيد أهمية وقيمة منهجة فى الكتابة التلقائية ، فقد كان يؤمن أن من شأن هذا المنهج أن يشحذ بصيرة الفنان وقدرته على الحدس والفراسة التى تقترب من التنبؤ .

ومن الجدير بالذكر هنا أن الأعمال المسرحية العظيمة التى أبدعها **أنتونين أرتو** و **روجيه فيتراك** ، والتى كان لهما أكبر الأثر فى تطوير المسرح الفرنسى المعاصر ، قد تمت بعد انفصالهما رسميًا عن الحركة السريالية بزعامة **بريتون** ، أو - بمعنى أصح - بعد فصلهما منها . فقد أراد كل من **أرتو** و **فيتراك** إخراج مسرحيات سريالية بعيدًا عن إطار الهواة ، أى من خلال المسرح المعترف به حينذاك . ورأى **بريتون** فى هذا خيانة لمبادئ السريالية ، وترديًا منهما فى هوة غرائز الكسب والشهرة ، مما دعاه إلى طردهما رسميا من الحركية السريالية عام ١٩٢٦ . وإثر ذلك قام **أرتو** و **فيتراك** بإنشاء « مسرح الفريد جارى » الشهير الذى افتتح فى أول يونيو عام ١٩٢٧ ببرنامج يتكون من مسرحية من فصل واحد كتبها **أرتو** بعنوان **اضطرابات فى المعدة أو الأم المجنونة** ومسرحية أخرى من ثلاثة فصول مقسمة إلى خمسة مشاهد كتبها **فيتراك** وسماها **الغار الحب** .

وتمثل مسـرحية **فيتراك** أول محـاولة جادة ومتمـاسكة لكتابة مسرحية سريالية خالصة فى الشكل والموضوع ، بل ومنهج التأليف أيضا . وربما ساعد **فيتراك** فى ذلك أن الموضوع الذى اختاره مكّنه من استخدام تكنيك التأليف التلقائى ، إذ تـعالج المسرحية اختلاط السادية والرقة الشاعرية فى خيال حبيبين بحيث يصعب التفريق بين الحلم والواقع ، أو بين ما يحدث فعلا وما كان يمكن أن يحدث . وإلى جوار الحبـيبين تظهر شخـصيات سيـاسية معـروفة مثل **لويد جورج** – الذى يقوم على المسرح بـتمزيق بعض الجثث مسـتخدمًا منشارًا – ومثل **موسولينى** . ويظهر **فيتراك** نفسه على المسرح فى عدة مشـاهد . فهو يظهر مـثلاً فى نهاية المشهـد الأول وقد تلطخ بالدماء ويخـبر المتفرجين وهو لا يكـاد يتمالك نفسـه من الضحك بأنه حـاول الانتحار بإطـلاق النار على نفسـه وفشل . وقـد كان ديكور المسرحية أيضا سرياليًا إلى أبعد الحدود بحيث كان كل مشهد يمثل لوحة سـريالية . فنجد المنظر فى المشـهد الرابع من المسرحـية يمثل محطة قطار وشاطئ بحر وبهـواً فى فندق ودكانا لبيع القماش وعربة طعام فى قطار وميداناً عاما فى الوقت نفسه .

ورغم تلك الفـوضى الظاهرية ، تتمـيز المسـرحيـة فى بعض مواقفها بـقدر كبير من الشاعرية مثل ذلك المشـهد الذى يناقش فيه البطل باتريس مشكلة اللغة كوسيلة للتفاهم مع المؤلف نفسه :

المؤلف : كلماتك يا صديقى تجعل كل شئ مستحيلاً .

باتريس : إذن . . فلتخلق مسرحاً دون كلمات .

المؤلف : ولكن يا عزيزى .. ألا ترى أن ذلك فعلاً هو ما سعيت إليه دائماً .

باتريس : أهذا صحيح ؟ ألم تملأ فمى بعبارات الحب !

المؤلف : كان عليك أن تبصق تلك العبارات .

باتريس : حاولت .. ولكن الكلمات تحولت إلى طلقات أو إلى لحظات دوار .

المؤلف : هذا ليس ذنبى . الحياة تفعل ذلك .

وربما كان هذا الحوار بشيراً بالاتجاه الذى سلكه كل من **فيتراك** و **أرتو** تدريجيا والذى انتهى بتيارى مسرح العبث الذى يسخر من اللغة كوسيلة للاتصال بين البشر ، ومسرح الحركة والعنف الذى يحاول الاستغناء عنها تماماً .

وشيئاً فشيئاً نجد مسرحيات **فيتراك** التالية مثل **فيكتور أو فليستولى الأطفال على السلطة** ومسرحية **الذئب الآدمى** تركز على مشكلة التفاهم ، وعلى انفصال اللغة عن الواقع ، وعجزها عن تحقيق الاتصال الإنسانى . ونجد **أرتو** فى تجاربه المسرحية وكتاباته النقدية يدعو إلى مسرح يستخدم السحر والأسطورة فى التعرية القاسية العنيفة للصراعات المتأصلة فى اللاوعى الإنسانى الجماعى ، وهو ما أسماه « بمسرح القسوة » - أى المسرح الذى يقوم على الشكل والحركة والإضاءة ويستبدل بالكلمات « البلاغة الحركية » . وربما كان الفرق بين مسرح القسوة الذى أراده **أرتو**

ومسرح الحلم الذى أراده السريـاليون هو تركيز **أرتو** على اللاوعى الجـماعى بدلاً من اللاوعى الفـردى الذاتى للفنان ، ورغـبتـه فى التوسل لتصوير هذا اللاوعى الجماعى بالأسطورة بدلاً من الأحلام والرؤى الفـــردية ، وتوسله بالشـكل والحـركـة بدلا مـن الشكل والكلمة .

ويمكن أن نقول أن المسرح المعاصر فى أوربا فى بعض اتجاهاته - من مسرح العبث ، إلى مسرح الـغضب إلى مسرح الواقعة (أو الهابننج) والمســرح الحى - لم يكن ليوجد لولا الحركـة السريالية بأقطابها جـميعا - تلك الحـركة التى أكدت قصــور المنطق والعقل الواعى ، وقدمت الحلم واللاوعى ثم الأسطورة كركائز أساسية فى فهم حقيقة النفس البشرية ، وأكدت أن النفس حياة كامنة وثرية ، مليئة بالاضداد والمتناقـضات ، وكسرت قواعد التعبـير المعروفة فى شتى الفنون .

التعبيريـــة

ربما كانت التعبيرية أكثر المذاهب الفنية الحديثة تأثيرًا فى بلورة المسرح الغربى المـعاصر فى أشكاله وأساليبـه التجريبيـة المعروفة . فبالرغم من أن التعبيرية كحركة محددة المعالم قد ازدهرت فى ألمانيا فـى الفترة ما بين ١٩١٠ - ١٩٢٥ أسـاسًا إلا أن المبادئ والأساليب الفنية التى نادى بها التعبيـريون قد استمرت سنين طويلة فى مجال المسرح بعـد انحسار الموجـه الأولى للتعبيـرية وامتد تأثيـرها خارج ألمانيا . ففى روسيا مثلا نجد تشـابهًا كبيرًا بين التعبيرية وبين نظرية **يفجين فاختانجوف** المعروفـة باسم الواقع الخيالى ، والتى تنتـصر لمبدأ تشويه الواقع كوسيلة من وسائل الإبـداع والخلق ، وتـرى أن هـدف الفن الشـرعى هـو التـعبـير عن مـشاعـر الفنـان بدلاً من محاكاة الواقع أو الطبيعة (أنظر مقالة **وليام كولكا** التى نشرها فى كتاب **المسرح الشامل** - ١٩٦٩ - بـعنـوان **فاختانجوف والمسرح الأمريكى فى الستينات**) .

وفى بولندا نجد المخرج العالمى **جروتوفسكى** يستخدم أساليب التعبيرين الفنية فى بلورة مـدرسته المشهورة فى الإخراج المسرحى (أنظر كـتاب **تجارب جديدة فى الـفن المسرحى للدكتور سـمير سرحان**) - تلك المدرسـة التى أثارت ضجـة كبـيرة عند عـرض مسرحية **أكروبوليس** التى أخـرجهـا **جروتوفسكى** وعرضـها فى مهرجان إدنبره فى عام ١٩٦٨ ، وفى انجلترا نجد المخرج المبدع **بيتر**

بروك يلجأ أيضـا إلى أساليب المسرح التعـبيرى فى إخراج رائعـته **المارا ساد** فى الستينيات أيضاً .

ماهى التعبيرية :

والتعـبيرية - كمـا يتضح من اللفظة نفسهـا - مذهب يرفض مبدأ المحـاكاة الأرسطية ، ويحل مـحلها مبدأ التـعبير عن مـشاعر الفنان فى تناقضـاتها وصراعـاتها ، ويتخـذ من هذه الرؤى الذاتية والحالات النفسـية موضوعًا مشروعًا لـلإبداع الفنى . لقد تميز هذا المذهب أكثر من أى مـذهب فنى آخر سبقه بالذاتية المفـرطة - كما أشار الناقد **جيرالد ويلز** - حيث نجد الفنان التعبـيرى - كما يقول **برنارد س. مايرز** فى كتاب **التعبيريون الألمان** - يلجأ إلى تشويه الواقع عن طريق التـبسـيط والمبالغة ، والـتفتـيت ، وخلط الواقع دائما بالحلم والرمـز ، واستخـدام نبرة وإنفعـالية عاليـة ، بحيث تتحول أى رؤية موضوعية إلى رؤية بالغة الذاتية .. بالغة الغرابة ، وفى أحيان كثيرة بالغة القبح !

مصطلح « التعبيرية » :

اختلف مؤرخـو الأدب حول منشأ مصطلح التعبـيرية فذهب فريق تزعـمه و. **صامويل** و و. هـ. **تومـاس** (فى كـتابهـما **التعبيرية فى الحـياة والأدب والمسرح فى ألمانيا ١٩٣٩**) إلى أن الناقد الفنى و. **ورينجر** كان أول من اسـتخدم هذه الـكلمة فى وصف بعض لوحات **سيزان** و **فان جوخ** و **ماتيس** ، وكان هذا

عام ١٩١١ . أما الفريق الآخر على رأسهم ج. بيثيل (الأدب الألمانى الحديث - ١٩٥٩) فيرجع أن اصطلاح التعبيرية ابتدعه الناقد الأدبى أوتوتسور ليندى فى عام ١٩١١ فى معرض الحديث عن بعض الشعراء فى مجلته الأدبية شارون .

التعبيرية والحركة الرومانسية :

لقد واكبت نشأة التعبيرية - خاصة فى ألمانيا - عدة ظروف اجتماعية وسياسية ، ومع ذلك فإن الأسس الفلسفية والجمالية التى استندت إليها تلك الحركة لا يمكن تفسيرها فقط فى ضوء تلك الظروف التاريخية التى عاصرتها مثل الحرب العالمية ، والثورة الاجتماعية التى أعقبتها فى ألمانيا .

إن الأصول الحقيقية للتعبيرية تكمن فى تلك النظرة الجديدة للعالم والفن والانسان التى أتت بها الحركة الرومانسية التى أرست قواعدها فى أوروبا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وساهم فى بلورتها فلاسفة مثل **جان جاك روسو** و **وليام جودوين** وشعراء مثل **وردزوورث** و **كوليردج** و**شيلى** و **بايرون** والمثاليين الألمان (وإن لم يقدر لها أن تحدث تأثيراً ملموساً فى المسرح حينذاك) . لقد رفعت الحركة الرومانسية شعار الثورة ضد كل ما هو قائم ومدروس ومقبول سواء فى مجال الفن أو السياسة أو المجتمع أو العقائد ، ومجدت الفرد ، وآمنت بقوة الروح فوق المادة ، وأحاطت شخصية الإنسان بهالة من القداسة ، وأحلت ملكتى الخيال والحدس محل العقل والمنطق . ولم يعد الفن فى

ضوء فلسفتها مرآة للحياة ، وانما مصباحًا ينيرها، ويضيف إليها عوالم جديدة ورؤى من نفس الفنان ذاته، ولم يعد الفنان مخلوقًا اجتماعيًا موهوبًا ، بل أصبح نبيًا وفيلسوفًا .

البدايات الأولى فى الفن التشكيلى - القبح والكاريكاتير:

لم تكن التعبيرية لتنشأ دون الحركة الرومانسية التى سبقتها . ومع ذلك فالفنان التعبيرى - بالرغم من اعتناقه لمبدأ الثورة وإيمانه بذاتية الفن والفنان - يختلف عن الرومانسيين الأوائل فى رفضه للنظرة المثالية للإنسان وفى مفهومه لفلسفة الجمال .

لقد اقترنت أعمال الفنانين التعبيريين دائما سواء فى مجالى الأدب والمسرح أو فى الفنون التشكيلية بلفظتى القبح والكاريكاتير - كما يوضح **لوثر جونتر بوخهايم** فى كتابه **فن التصوير عند التعبيريين الألمان** (١٩٦٠) . وربما كان **فان جوخ** من أوائل الفنانين الذين اكتشفوا هذا التشابه بين أسلوب التعبيرية وأسلوب الكاريكاتير ، ففى أحد خطاباته نجده يستخدم كلمة الكاريكاتير عندما يصف كيف رسم لوحة لواحد من أقرب أصدقائه إلى قلبه فيقول :

« إن رسم الشبه الأساسى لايعد سوى مرحلة أولية أبدأ بعدها فى التغيير .. فأبالغ أولاً فى تلوين الشعر الأشقر ، فأخلط البرتقالى بالفضى بالليمونى ، وأستبدل حائط الحجرة فى الخلفية

بلون أزرق عميق غنى بحيث تبـدو رأس صديقى فى النهاية وكأنها نجمه لامعة تتألق فى السماء الزرقاء . ولكن للأسف يا صديقى لن يأخذ الجمهور مبالغاتى فى اللونين هذه مأخذ الجد ، ولن يرى فيها سوى نوعاً من الكاريكاتير الفكاهى » .

الكاريكاتير كوسيلة لتحقيق الصدق الفنى :

لقد كان **فان جوخ** على حق فى وصف طريقتـه فى التعبـير بالكاريكاتيـر وإن كان كـاريكارتيراً جـاداً لا يقصـد منه الفكاهة . فهناك تشـابه كبير بين أسلوب الـكاريكاتير والأسلوب التعبـيرى . ففنان الكاريكاتيـر يبالغ ويبسط ، ويشـوه الواقع ليعبـر عن تصور خاص به لموضـوعه ، وهو تصـور عادة مـا يثيـر الضحك . وإذا تجاهلنا عنصر الفكاهة لا نجد ثمة اختلاف بين الكاريكاتير والتعبيرية ، فالفنان التـعبيرى يبـسط ويبالغ وإن كانت رؤيته الخـاصة للواقع عادة ما تكون مؤلمة أو حزينة أو مرعبة .

ولقد كـان الفنان النرويجى **إدفارد مانش** من أوائل الفـنانين التـشكيليين الـذين حاولـوا استـكشـاف أساليـب فن الكاريكاتيـر واستخدامها فى بلورة المدرسة التعبيرية فى التصوير .

فـفى عـمل له بعنوان « **الصراخ** » عرض عـام ١٨٩٥ نجـده يحاول أن يجـعل الصرخة المحور الأسـاسى الذى تلتقى عنده كل الخطوط دون أى أعتـبار للواقعيـة ، وكأنه يقول إن لحظة الانفـعال يمكن أن تزلزل رؤيتنا للواقع مـن حولنا تمامـا . أما وجه الإنـسان

الذى يصرخ فى اللوحة فقد صوره **مانش** فى خطوط بسيطة وحادة يغلب عليها طابع المبالغة الشديدة بحيث أصبح تصويرًا كاريكاتوريًا لوجه ميت أو هيكل عظمى بعينيه الجاحظتين وخدوده الغائرة . كما تعمد **مانش** أن يترك سبب الصرخة مجهولاً مما يزيد من توتر التعبير وأثره على المشاهد لأن الصرخة أصبحت مطلقًا مرعبًا ليست له حلول أو أسباب يمكن تفاديها . ونتج عن اعتناق الفنان التعبيرى لأساليب الكاريكاتير فى تصوير رؤياه الخاصة ابتعاده عن الجمال بمفهومه التقليدى . وعندما هاجم النقاد **مانش** لقبح لوحته قال :

« إن صرخة الرعب لا يمكن أن تكون جميله. ولو وجدتموها جميلة فى لوحة لى أكون قد كذبت وزيفت جوهر الألم » . (**قصة الفن - ل. هـ. جومبريتش)** .

الجمال والصدق الفنى :

لقد آمن التعبيريون بأن الجمال هو صدق التعبير مهما كان هذا التعبير قبيحًا ، ورفضوا الجمال بمفهومه التقليدى أو الكلاسيكى أو الرومانسى المبتذل - أى تصوير الأشياء كما يجب أن تكون عليه فى اكتمالها المثالى ، أو تصوير الأشياء المبهجة للنفس بصرف النظر عن الحقيقة فى كليتها .

ومن أبدع الأعمال التشكيلية التى يتضح فيها هذا المفهوم التعبيرى للجمال تمثال **الشفقة** الذى أبدعه الفنان والكاتب المسرحى التعبيرى الشهير **إرنست بارلاخ** (١٨٧٠ - ١٩٣٨) وهو يصور

امرأة تتسول غطت وجهها بملاءتها وانحنت قامتها فى ذلة بالغة ولم يعد يظهر منها سوى كفين كـبيرتين تمتدان فى ضراعة . ونرى هذا المفهوم الجـديد للجمال أيضا بوضـوح فى لوحات الفنان والكاتب المسرحى التعبيرى **أوسكار كوكوشكا** الذى أثارت أعماله التشكيلية الأولى عاصفة من الاحـتجاج فى فيينا عام ١٩٠٩ - خاصة لوحة **أطفال يلعبون** والتى كسر فيها التقـاليد المعتادة فى تصوير الأطفال والتى تربى عليها ذوق الجمـهور فى أعمال **روبنز** و **بيلاسكويز** و **جينزبارا** و **رينولدو** . ولقد كانت لوحة **كوكوشكا** لا تبعث على السرور والانشراح وإنما على الحزن والأسى ، فـالأطفال فى لوحته يأتون من الجانب الشـائه والحزين فى الحـياة ، وتعكس أجسـامهم ووجوههم هذه الحقـيقة بوضوح . لقد حاول الفنانون التـعبيريون عن طريق المبالغة والتـشويه الذى يقرب من الكاريكاتير ، واخـتيار موضوعاتهم من جانب الحياة المظلـم الشائه ، أن يسجلوا احتجاجاً غـاضـبـاً على القـسوة والـظلم فى عـالمهم ، وعلى كم العـذاب الانسانى الهائل الذى ساد مجتماعاتهم فى ذلك الوقت .

مـفـارقـة الذاتيـة المفـرطة والوعى الاجـتـمـاعى العميق:

إن المفارقة الكبرى التى يلمسها الدارس للمذهب التعبيرى هى أن التعبيريين رغم ذاتيـتهم المفرطة ، وإيمانهم بأن الرؤية الذاتية هى الحقيقة الوحيدة الصادقة ، كان لديهم وعى اجتماعى عميق يقترب

من الثورية فى كثير من الأحـيان ، وكان تعاطفهم دائمًا مع الرجل العادى المطحون - أو مـا اصطلح على تسميته فيـما بعد «بالرجل الصغير» . وربما كان هذا «الرجل الصغـير» الذى ناصره التعبيريون هو الإبن الشـرعى «للهمـجى النبـيل» الذى رأى فيـه **جان جاك روسو** إبان الحركـة الرومانسـية الأولى تجـسيدًا لـلطبيعـة التى لم يفسدها المجتمع . وربما كانت الصورة الجديدة الشائهة للبسطاء هى المقابل العصرى لسكان الريف الذين كـتب عنهم الشاعر الإنجليزى الرومانسى **ودزوورث**. إن تفسيـر مفارقة الذاتيـة المفرطة والوعى الاجتماعى - ذلك الوعى الذى أدى فـى بعض الأحيان إلى العمل الثورى سواء لدى الرومـانسيين مثل **بايرون** الذى مـات يدافع عن استقلال اليونان أو لدى التعبيريين مثل **توللر** و **بيشو** اللذان حاولا تطبيق برنامـج عمل سيـاسى محدد - إن تفـسير تلك المفـارقة هو رغبة الفـنان الرومانسى ، والتعبـيرى من بعده ، فى تجسـيد رؤيته الخاصة فى عالم الواقع عن طريق الثورة والتغيير الاجتماعى بحيث يصبح العالم الخارجى مطابقاً لرؤياه الخاصة .

ولقد وجدت روح الثورة الاجتماعية التى ميزت التعبيرية تربة خصـبة فى ألمانيا حـيث نجحت فى استـثارة غضب وثورة الطبـقة المطحونة مما جـعل حزب الاشـتراكيين القـوميين يضطهـدها بمجرد وصولـه إلى الحكم ، بل ويفرض حظراً كـاملاً على كل مـذاهب «**الفن الحديث**» . وكان مـصير زعـماء التعـبيرية إمـا النفى أو منع

أعمـالهم من الظهـور إلى النور . وكان هذا مـصير الفنـان المبدع **إرنست بارلاخ** .

بدايات التعبيرية فى المسرح :

رغم أن المذهب التعبيرى قد ازدهر فى الفترة ما بين ١٩١٠ و ١٩٢٥ - أى أن ازدهاره عاصر الحرب العـالمية الأولى والثورة التى تبـعت هذه الحرب فى المـانيا بحـيث وصف بعض النقـاد المذهب التعبيرى بأنه انعكاس طبـيعى للهزة الروحية والاجتماعيـة العميقة التى سببـتها تلك الأحداث - بالرغم من هذا فـقد كان للتعـبيرية بدايات فى المســرح سـبـقت تلك الأحـداث . وكـانت أهم هذه البدايات هى بعض أعمال السويدى **أوجست سترندبرج** .

إن أعمال **سترندبرج** تمثل فى مجموعها تطوراً من الطبيعية فى البداية - مثل مـسرحيات **الأب** ١٨٨٧ **والآنسة جوليا** ١٨٨٨ - إلى الرمزية - كما نجد فى مسرحيات **بعد الحريق** و **سوناتا الشبح** ١٩٠٧ . ومع ذلك فإن جوهر أعماله الحقـيقى يتخطى أمثال تلك التصنيفات . لقد كانت الدفقة الـشعورية فى أعماله دفقة دينية فى أساسها ، وكانت أعماله دائما تدور حول قضايا لا زمنية مثل الخير والشـر والذنب والتكـفـيـر ، وفى مـعظم الأحـيـان كـانت هذه الصراعات تتركز فى وجدان شخصية منعزلة تمثل فى العادة وجدان المؤلف نفسه .

إن هذه الملامح الأساسية لرؤية **سترندبرج** الدرامية تظهر بوضوح فى ثلاثيته **الطريق إلى دمشق** (١٨٩٨ - ١٩٠١) كما تظهر فيها أيضا - وربما للمرة الأولى فى عمل درامى - **الملامح الأساسية التى ميزت الدراما التعبيرية فيما بعد وهى :**

أولاً : استخدام أنماط بشرية عامة مثل الغريب والشحاذ والطبيب بدلاً من استخدام شخصيات متفرّدة بالطريقة الدرامية التقليدية .

ثانيا : الاستغناء عن الحبكة التقليدية وتفتيت الحدث إلى مشاهد منفصلة متتالية تعبّر عن مراحل تطور فى الشخصية المحورية - التى هى وجدان المؤلف - فى رحلتها الشاقة نحو هدف روحى رفيع .

ثالثاً : توحد الكاتب مع الشخصية المحورية فى العمل . والشخصية المحورية فى هذا العمل هى الغريب الذى يعانى خلال رحلته كل أنواع العذاب النفسى حتى يصل إلى خلاصه الروحى أما الشخصيات الأخرى فى المسرحية فهى مجرد تجسيد لصراعات البطل النفسية وليس لها وجود منفرد محدد . لقد كانت مسرحية **الطريق إلى دمشق** أول بداية حقيقية للدراما التعبيرية قبل ظهورها كحركة درامية محددة المعالم فيما بعد .

وتلت هذه البداية **مسرحية الحلم** التى كتبها **سترندبرج** عام ١٩٠٢ فكان لها تأثير كبير وقوى فى بلورة التعبيرية فى المسرح . فالحدث هنا يبدو كالحلم وينتفى منه قانون السببية والمنطق .

والشخصية تنقسم وتزدوج ، وتتكرر وتتعدد ، ويذوب بعضها فى البعض ، والأحداث التى تجرى تكتسب معناها فى علاقتها بخلفية لا واقعية : فالمسرحية تبدأ بحوار بين الإله **إندرا** وابنته التى ترجوه السماح لها بالنزول إلى الأرض لتخفف من آلام البشر . ومثل هذا المشهد الافتتاحى كثيرًا ما يتكرر فى الدراما التعبيرية . وتتميز المشاهد المنفصلة التى تتكون منها هذه المسرحية - رغم واقعيتها - بارتباطها دائما بمستوى آخر روحى . وكانت هذه أيضًا سمة أخرى هامة فى الدراما التعبيرية فيما بعد - أى تقديم المشهد على مستويين أحدهما واقعى والآخر روحى . لقد وضع **سترندبرج** شخصية الكاتب فى مركز العمل الدرامى ، وخلط الواقع بعالم ما فوق الطبيعة ، واستعاض عن الحدث التقليدى بمشاهد تكاد تكون مستقلة ولا ترتبط إلا فى وجدان الشخصية المحورية - مشاهد تمتزج فيها الواقعية بالرمز والحلم ، وتستخدم لغة ذات شحنة انفعالية قوية قد تخفت أحيانًا فتصبح شاعرية رقيقة ، وقد ترتفع أحيانًا أخرى إلى درجة الصراخ والمبالغة الهستيرية. وهكذا ساهم فى إرساء دعائم المسرح التعبيرى .

والتقى التيار الذى بدأه **سترندبرج** فى المسرح بتيار دراما النقد الاجتماعى والسخرية اللاذعة من القيم البرجوازية الذى ازدهر فى ألمانيا فى الفترة السابقة لنشأة التعبيرية على أيدى **فرانك فيدكند** و **كارل شترنهايم** . ومن التقاء هذين التيارين نشأت الدراما التعبيرية الألمانية .

ظروف نشأة الدراما التعبيرية فى ألمانيا :

نشأت التعبيرية كرد فعل عنيف انعكس فى شتى مجالات الإبداع الفنى والفكرى ضد العقائد التى سادت أوربا فى أواخر القرن التاسع عشر والتى آمنت بسيطرة المادة فى أشكالها المتعددة على الروح والإنسان - تلك العقائد التى وجدت تعبيرها الفنى فى المذهب الطبيعى ، وأيضا فى المذهب التأثيرى ، رغم اختلافه العميق عن الطبيعية . لقد ظهرت التعبيرية لتنادى بسيادة الروح على المادة ، وبأن الفرد ليس نتاجًا وعبدًا لظروف وقوى اجتماعية ومادية وتاريخية لا يستطيع التحكم فيها ، وإنما هو نفسه عنصر خلاق محرك يمكنه تغيير العالم وفق رؤيته . لقد حمل لواء التعبيرية جيل ولد فى الحقبتين الأخيرتين من القرن التاسع عشر - جيل خاض تجربة الحرب العالمية الأولى الطاحنة وبعدها ، فى ١٩٣٣ ، تجربة النازية .

مراحل تصور التعبيرية :

وعلى أيدى أبناء هذا الجيل مرت التعبيرية بمرحلتين ملحوظتين:

أولاً : مرحلة ما قبل الحرب : تميزت الدرامات التعبيرية حينذاك بالذاتية المفرطة ، وروح البحث - وسط فوضى القيم والعقائد - عن الخلاص والبعث الروحى . فنجد أن معظم المسرحيات التى كتبت فى إطار التعبيرية فى هذه الفترة مسرحيات

تصور تجارب شخصية لمحاولة الفرد التحرر من أثقال الحياة المادية والروتين اليومى بحثًا عن وجود أغنى وأفضل . ورغم طابع الذاتية وروح التصوف الدينى التى ميزت المسرحيات التعبيرية فى هذه الفترة إلا أن بعض هذه المسرحيات التعبيرية الأولى تقدم أيضا - على استحياء - نغمة التغير الاجتماعى فتصور أحيانًا المظاهر القبيحة للمدنية الحديثة وتعرض فى بعض الأحيان لمعاناة الطبقة العاملة . كما نجد أيضا فى بعض هذه المسرحيات إحساسًا غامضًا بقرب وقوع كارثة ما . وكثيراً ما عبر كتاب هذه الفترة عن هذا الإحساس بتصور نشوب حرب عالمية تدمر كل شئ لتفسح المكان لظهور عالم فاضل يحكمه قانون الحب ، كما نجد فى مسرحية **كارل هاويتمان** المسماة **الحرب** (١٩١٢) .

وفى فترة ما قبل الحرب ارتبط هذا الإحساس الغامض بقرب وقوع الكارثة ونشوب حرب واسعة النطاق بفكرة الثورة عند بعض الكتاب بحيث دخلت تيارات اجتماعية ثورية إلى الحركة التعبيرية . وتظهر روح الثورية هذه فى الأسماء التى اختارها التعبيريون لمجلاتهم ودورياتهم مثل **دى أكسون** (التحرك) ١٩١٠ **ودرشتورم** (العاصفة) ١٩١٠ ، **وريفولوسيون** (الثورة) ١٩١٢ . ورغم أن هذه النزعة الثورية لم تكن موجهة ضد نظام بعينه أو طبقة بعينها فى بادئ الأمر إلا أن هجومها كان يتركز أساسًا ضد البرجوازية والمجتمع الراسمالى .

أما أبرز كتاب التعبيرية فى هذه المرحلة الأولى فكانوا **أوسكار كوكوشكا وأرنست بارلاخ وفرانز ويرفل ورابنهارد سورج** . ورغم أن **كوكوشكا** كان أولاً وأخيرًا رساماً ولم يبذل جهداً أو وقتًا كبيرًا فى ممارسة الأدب إلا أن مسرحياته الأولى - مثل **القاتل : أمل النساء** (١٩٠٧) **والشجرة المحترقة** (١٩١١) - يمكن اعتبارها من أوائل المحاولات المسرحية التعبيرية .

لقد ركز **كوكوشكا** فى هذه المسرحيات على الصراع بين الرجل والمرأة متخذًا من مراحل هذا الصراع القاسى وسيلة لتصوير فكرة تحقيق الخلاص والتطهر عن طريق الألم والعذاب . ونجد فى هذه المسرحيات الملامح الفنية للمسرح التعبيرى التى تبلورت بصورة أوضح فيما بعد مثل تجريد الشخصيات بحيث تصبح أنماطًا - كالرجل والمرأة - وتفتيت الحدث إلى مشاهد مستقلة يلفها الغموض ، واستخدام لغة عنيفة متفجرة عالية النبرة .

أما فى أعمال **بارلاخ** فى هذه المرحلة الأولى فيتخذ البحث عن الخلاص والتطهر صورة البحث عن الله الذى يتجسد أحيانًا فى صورة الأب . ويمثل هذا البحث المضنى عن الله جوهر معظم مسرحياته . ففى مسرحيته الأولى **اليوم الميت** (١٩١٢) نرى أماً وابنها يسكنان بهوًا واسعاً يلفه الظلام طول الوقت ، ويحتدم بينهما صراع مرير حيث أن الأم تحاول أن تبقى الابن تحت سيطرتها بينما ينشد هو البحث عن أبيه ويرى فى التقائه به خلاصه الروحى. ونكتشف فى النهاية أن الأب هو الروح أو الله . وفى

هذه المسرحية تختلط الصوفيـة بالواقعية ، والرمزية بالكاريكاتير - كما يتضح فى المشهد الذى تمتطى فيه الأم جواداً سحرياً كان الأب المجهـول قد أرسلـه لابنه حتى يتـمكن من الهرب والتـحليق إلى عوالم أفضل .

إن مسرحيات **بارلاخ** تعتبر أصدق تمثيل للتيار الصوفى الدينى فى التعبـيرية . وقد استمـر هذا التيار واضحـاً فى مسرح **بارلاخ** حتى بعـد قيـام الحرب ، واندلاع الثـورة ، وظهور تيـار الصراع الاجتماعى فى المسرح التعبيرى ، وحتى أخرس النازيون لسانه فى عام ۱۹۳۳ . وتميز نفس الروح مسـرحيات الشاعر **فرانزويرفل** ، ويظهر تأثير الشعر الغنائى بوضوح فى مسرحه ، خاصة فى أحسن مسرحياته **الرجل والمرأة** التى تعـالج فـى قـالب فـاوسـتى فكرة الخلاص الروحى والصـراع بين الخير والشـر - ذلك الصراع الذى كان دائما بؤرة الحدث فى كل أعماله .

أما مسـرحيات **سورج** فتـعكس بدايات الاهتـمام بالقـضايا الاجتماعية والصراع بين الفـرد والمجتمع (ممثلاً فى الأسرة وخاصة الأب) - ذلك الصراع الذى أصبح فى المرحلة التاليـة من التعبيرية ملمحـاً أساسياً من مـلامحهـا . ففى مسرحـيته الشهـيرة **الشحاذ** (۱۹۱۲) يصـور لنا **سورج** الصـراع بين بطل المسـرحيـة - الذى يسميه الشـاعر - وبين العالم الواقعى فى مجمـوعة من التابلوهات المتـالية التى تصور مشـاهد من الحياة اليومـية التى تعج بالأنماط . ولا يقـدم **سورج** هذه الأنماط بصـورة واقـعيـة وإنمـا بصـورة

كاريكاتورية تثير الضحك أحياناً والرعب أحياناً أخرى . وبعد ذلك يتحــول البطل من الشاعــر إلى الإبن ، وينتقل الـصراع إلى داخل أسرة البطل ، ويصبح صراعاً بين الإبن والأب الذى يمثل هنا النظم والقيم الاجتماعية الموروثة . ويُعَبّر **سورج** عن رفضه لهـذه القيم بصورة مـبالغ فيـها إذ يجعل الأب مـهندسا مجنونا يؤمن بالتـقدم العلمى . وتنتـهى المســرحيـة بأن يقـتل الإبن أباه عن طريق السم ليـحرره من وجـوده التافـه . ولقد ظل الصــراع بين الإبن والأب وسيلة درامية مفضلة لدى الكتـاب فى هذه المرحلة لترجمة الصراع بين التقـاليد الموروثة وروح الثـورة - كما نجـد فى مسرحـية **الإبن** (١٩١٤) للكاتب **والتر هاونكليفر** ومسرحية **قتل الأب** (١٩١٥) للكاتب **أرنولت برونن** .

ثانيا : مرحلة مـا بعد الحرب : أما المرحلة الثـانية فكانت بعد الحرب حيث أدت الفوضى الشاملة التى نتجت عنها إلى ارتفاع صيحة تدعو إلى تصالح البشر وإلى قيم اجتماعية جديدة تقوم على المحبة ، وهكذا انغمس المسرح التعبيـرى فى القضايا الاجتماعية ، وركز على الصــراع بين الفرد والمجتــمع ، ومحاولة الفـرد إيصال رسالته إلى المجتمع ، فنجد فى هذه المرحلة مسرحيات تدور حول إدانة الحرب مـثل - مسرحـية **السباق** (١٩١٧) التى كتـبها **فريتز فون أوبرو** ومسرحية **تحول الصور** (١٩١٨) التى كتـبها **إرنست توللر** . كما نجد مسرحيات تعالج قـضايا استغلال العمال وسيطرة رأس المال على الفــرد وتحكم الآلة فى حـيـاة الإنـســان - مـثل

مسرحيات **جيورج كايزر** - خاصة مسرحيته الشهيرة **غاز** (١٩١٨) ، وكانت الجزء الثانى من ثلاثية توجت **كايزر** ملكاً للدراما التعبيرية فى هذه المرحلة .

ورغم انتقال بؤرة التركيز من الروح إلى المجتمع فى مسرحيات هذه المرحلة ، إلا أن الأساليب الفنية لم تختلف عن المرحلة السابقة ، فنجد فى مسرحيات المرحلة الثانية التبسيط والتجريد ، واستخدام الأنماط ، والمبالغة لدرجة التشويه ، وخلط الواقع بالرمز والحلم والأسطورة ، واستخدام اللغة استخداماً انفعالياً مبالغاً ، كما نجد أيضاً تكنيك تقديم الحدث فى مشاهد مستقلة لا يربطها سوى الفكرة العامة فى وجدان البطل .

ورغم أن رؤية التعبيريين للمستقبل فى هذه الفترة اتخذت تصوراً اشتراكياً بلغ فى بعض الأحيان حد الشيوعية ، وعلق الآمال على طبقة البروليتاريا ، إلا أننا لا يجب أن نبالغ فى أهمية التحام التعبيرية كمذهب فنى بالكفاح السياسى لطبقة العمال . لقد كانت هذه العلاقة عاملاً ثانوياً فى بعض الأحيان ، ولم تكتسب أهمية كبيرة إلا فى أعمال مجموعة صغيرة من الكتاب التعبيريين أمثال **ارنست توللر** و **لودفيج روبيز** و **يوهانس ر. بيشر** .

لقد كانت التعبيرية أساساً حركة روحية لا سياسية ، تهدف إلى إعادة تشكيل الانسان والمجتمع دون التقيد ببرنامج عمل سياسى محدد أو أية أيديولوجية بعينها . واستمرت التعبيرية فى الازدهار حتى عام ١٩٢٣ تقريباً حين بدأت فى التقلص بعد فشل الثورة الاجتماعية وانهيار الآمال فى بزوغ عالم جديد شجاع .

التكعيبية

كان **إيمانويل كانط** قد كتب قرب نهـاية عصر « التنوير » فى القرن الثامن عشر : « إن التـجربة الإنسانية لا يمكن أن تتبلور دون أن تكون هناك فكرة واضـحة عن عـالم مـفهـوم » . وبينما كـان وجود مثل تلك الفكرة الواضـحة عن عالم مفهوم شيـئاً مسلماً به فى القرن الثامن عشر ، فإن الأمر قد اختلف فى القرن العشرين ، إذ أصـبح الوصول إلى تـلك الفكرة الواضـحة مـشكلة أسـاسيـة واجهت كل فنان ، وحاول كل فنان أن يجد لهـا حلاً على طريقته الخاصـة ، ملتمساً مـعونة المعطيات العلمـية والفلسفيـة الجديدة . فبينما نجد الفنان السريالى مثلاً يبحث عن الحقيقة فى عالم اللاوعى والأحلام مستعيناً بنظريات **فرويد** وعلم النفس ، ويعبر عن رؤيته فى قالب الحلم والفـانتازيا ، نجد الفنان التكعيـبى يحاول أن يصل إلى الحقيـقة عن طريق إعمال العـقل ، وتحليل التجربة المحـسوسة تحليلاً علمياً تجريدياً ، معتمـداً على العلوم الطبيعية والرياضيات ، ويعبر عنها فى أشكال هندسية متداخلة تتميز بالمنظور المسطح .

كان إتجاه التكعيبيين إلى العلـم والعقل فى محاولة فهم العالم والتعبير عنه فنيـاً شيئاً جديداً حقاً . فقد شهـد القرن التاسع عشر فـجوة واسـعـة بين العلم والفن نتج عنهـا أن فـقد الفن جـذوره الفكرية . وبالرغم من ظهور بعض التجارب الفنية التى استخدمت

المنهج العلمى التحليلى مثل الرواية الطبيعية، والمدرسة التأثيرية ، إلا أن الفن والعلم ظلا يمثلان فى ذلك القرن نوعين مختلفين تماماً من التجربة والمعرفة بحيث أصبح التوفيق بين النظرية العلمية والنظرية الجمالية شيئاً مستحيلاً . وعبر الكاتب البريطانى **ماثيو أرنولد** عن هذا الوضع حينما تساءل فى مقاله (الأدب والعلم) عما إذا كانت هناك وسيلة تجعل الشعر قادراً على ربط اكتشافات العلم الحديث بسلوك الإنسان وحبه الغريزى للجمال . ويؤكد فى نهاية مقاله ضرورة إيجاد تلك الرابطة حتى يتحقق للتجربة الإنسانية الاكتمال . واستمرت تلك المشكلة تشغل بال المفكرين حينا من الزمن ، وحتى أوائل القرن العشرين ، فنجد مثلا الناقد وعالم النفس المعروف **أ. أ. ريتشاردز** يتساءل فى عام ١٩٢٦ : « كيف يمكن لأى شاعر أن يعالج فكرة الله فى عالم تحكمه قوانين النسبية ؟ » ويضرب **ريتشاردز** بالشاعر **ت. س. إليوت** مثلاً لمأساة الشاعر المعاصر الذى يحس بالعجز والحيرة أمام التقدم العلمى الذى حطم كل معتقداته الموروثة . وربما كان الاعتقاد الرومانسى الذى ساد القرن التاسع عشر بأن الخيال الإبداعى يرتبط أساساً بالعواطف والحواس ، ويؤثر عن طريق الشحنة الشعورية والصورة المجسدة - ربما كان هذا الاعتقاد من الأسباب التى ساعدت على اتساع الفجوة بين الفن والعلم ، وبالتالى بين العقل والإحساس فى تلك الحقبة ، بحيث انتفت تماماً فكرة شاعرية الأفكار - أو « شاعرية الفكر » .

وكان الجديد الذى أتى به التكعيبيون فى محاولة فهم العالم المتغير حولهم والتعبير عنه هو الدعوة بأن الفنان يجب - حتى يتوصل إلى الحقيقة - أن يُعمل ملكة العقل لديه فى تفسير وتحليل الظواهر ، وإنه بدون إعمال العقل لن يتوفر للرؤية الفنية القدر اللازم من الصدق . وكان الرسام الفرنسى **سيزان** - وهو الأب الروحى للتكعيبية - أول من نادى بذلك عندما قال : « الفنان فى المتحف يتعلم كيف يفكر » . وتبعه **سيروزييه** فقال : « إن الذكاء متطلب أساسى فى الرسام » . ومن بعدهما جاء **جلايتزس** و **متزينجر** ليؤكدا أن الفنان التكعيبى قد رفع الفن إلى مرتبة العقل دون تجاهل الحواس والعواطف : « فالعالم الذى نراه لا يمكن أن يصبح العالم الحقيقى الواقعى إلا عن طريق إعمال الفكر فيما نرى » . ثم يكرران :

« لا يكفى أن يرى الفنان الشئ بل يجب أن يفكره » .

وتدريجيا تبلورت نظرية التكعيبية حتى أصبحت أقرب النظريات الفنية إلى العلم . وكان لنظرية النسبية كما فسرها الفلاسفة الطبيعيون مثل **ف. هـ. برادلى** ثم **وايت هيد** أعمق الأثر فى بلورة الحركة التكعيبية - بل إنها تمثل الأساس الفكرى الذى قامت عليه تلك الحركة الفنية . وكانت همزة الوصل بين التكعيبيين والنظرية النسبية رجلاً يدعى « **برينست** » يهوى الرياضيات ، وكان يقيم بينهم فى حى **مونتمارتر** فى باريس . ولابد أن **برينست** قد شرح لهم أفكار **ف. هـ. برادلى** الذى

كتب عام ١٨٩٣ كتاباً بعنوان **المظهر والواقع** قال فيه : « إن الواقع لا يمكن أن تكون له حدود مطلقة ، بل تختلف حدوده باختلاف وجهة النظر . يجب علينا أن نقبل أن الواقع متعدد الوجوه ، وأن ثمة وجوهاً متعددة قد تمثل واقعاً محدداً . إن الطريقة التى نرى بها الشئ هى الشئ نفسه » .

وفى ظل النظرية النسبية التى غيرت مفهوم الزمان والمكان أصبح من المستحيل تجزئة العالم إلى أماكن محددة ، وأزمنة محددة ، وأشياء محددة ، ووجد الفنان التكعيبى نفسه فى عالم «انتفت منه كل المفاهيم البسيطة» كما قال الفيلسوف **وايت هيد** وأصبح معنى كل شئ فيه « مشروطاً بعلاقاته الجماعية بكل الأشياء » . وهكذا تأكد للفنان التكعيبى ضرورة الاعتماد على عقله فى البحث عن حقيقة الأشياء ، حيث أن الحواس خادعة وقاصرة ، وضرورة رؤية الشئ من منظورات مختلفة حتى يتضح له أكبر قدر من مستويات الواقع ، وضرورة محاولة تصوير أى شئ فى كليته وشموليته .

ووجد الفنان التكعيبى - فى مجال الرسم الذى تبلورت فيه تلك الحركة أولاً - أن عليه أن يكسر القاعدة الأساسية المتوارثة (وهى منظور الأبعاد الثلاثة من نقطة رؤية محددة) حتى يحقق شمول الرؤية ، وحتى يصور أية جزئية من الواقع فى كليتها : فمكونات التجربة الإنسانية متشابكة دوماً ، ويتغير مظهرها حسب وجهات النظر ، كما أن الزمن والضوء يمكن أن يغيرا مظهر أى

شئ بحيث يختلف تماما فى كل مرة . ولهـذا حاول التكعيبيون أن يصوروا أى تجربة حسيـة أو فكرية من جميع وجهات النظر الممكن تصورها بحيث نراها فى شمولية علاقاتها ومظاهرها المختلفة .

كما حاولوا أيضا ربط العـمل الفنى بالواقع المحيط به باعتباره أحد أبعاد الحقيقة أو أحد مستويات الواقع .

فالمعنى الذى كان التكعيبيون يبحثون عنه فى ظل نظرية النسبية كان معنى يمكن فقط أن نجده فى مرحليّة تكشّف الشئ فى مظاهره المتعـددة ، وفى العلاقات اللانهـائية التى تربط كل بعـد من أبعاد الحقيقية بجميع أبعاد التجارب الأخرى .

كان الأسلوب الفنى الذى أتبعه التكعيبيون فى مرحلته الأولى أسلوباً تجريدياً مـتأثراً بالتشكيـلات الهندسية المجـردة التى أدخلها **سيزان** ، وكان يُسمى فى تلك المرحلة بالأسلوب التحليلى .

وظهر ذلك الأسلوب بوضـوح فى أعمال **براك** و**بيكاسو** بين عام ١٩٠٧ وعام ١٩١٢ حيث نجد لوحاتهـما تتكون من مساحات ومستـويات هندسية لا تكتمل أى منها علـى حدة ، ولكنها تُنتظم فى تشكيل يتـداخل مع الخطوط التجـريدية للموضـوع المرسوم ، بحيث تصبح اللوحة تكوينات هندسـية متداخلة فى منظور مسطح .

ثم تطور الأسلوب حتى وصل إلى الاكـتمال فى المرحلة التى تُسمى بـالأسلوب « التجـميعـى » الذى تميز إلى جـانب احتـفاظه بالمنظور المسطح والتشكيلات الهندسية بالملامح التالية :

أولاً : إعادة عنصر التصوير بحيث تمثل اللوحة شيئاً يمكن التعرف عليه حتى بعد إخضاعه للتحليل الهندسى .

ثانياً : إدخال « الكولاج » - أى توظيف خليط من عناصر وخامات من الطبيعة داخل اللوحة مثل قصاصات الصحف واللوف واللباد والقماش وورق الحائط .

ثالثاً : توليد الإحساس لدى المشاهد بعدم اكتمال اللوحة بحيث تبدو وكأن خطوطها تمتد خارجها كما لو كانت بقعة من الواقع ألقى عليها الضوء مؤقتاً ، ولكنها تكّون جزءاً لا ينفصل عن الواقع المحيط بها . أى أن الفنان التكعيبى كان يحاول أن يكسر الحاجز الوهمى بين عالم اللوحة والعالم الخارجى الملامس له وذلك لأن معنى اللوحة ليس مطلقاً - مثلها فى ذلك مثل كل جزء من جزئيات الواقع فى ظل النظرية النسبية .

فالتكعيبية إذن - فى أحد تعريفاتها - هى محاولة فهم العالم عن طريق تحليل كل جزء من التجربة إلى مستوياته المتعددة ، وتحليل العلاقات المتشابكة التى تربط كل مستوى بجميع المستويات الأخرى لجميع الأشياء الأخرى الممكنة . والتكعيبية أيضاً هى مدرسة المنظور المركب المسطح اللانهائى ، الذى يحرر معطيات التجربة من الأبعاد الثلاثة ، ويحللها إلى مستويات تتصارع وتتعدل حسب علاقاتها المتشابكة ، بحيث يتم الصراع الذى يمتد إلى الواقع المباشر للعمل الفنى - سواء كان حائطا خلف لوحة ، أو جمهوراً فى مسرح ، أو أصوات الحياة العادية بالنسبة لقصيدة - ويكون بمثابة الحركة الفنية الداخلية للعمل .

والتكعيبية **أيضاً** هى النتاج الفنى الطبيعى لنظرية النسبية التى تمثل التفسير العلمى للوحة التجربة الإنسانية فى القرن العشرين .

لقد وصف المفكر **تشارلز موريس** تلك اللوحة قائلاً : «اتسعت أبعاد التجربة الإنسانية فى عصرنا هذا بحيث أصبح لزاماً على الإنسان أن يرى نفسه ليس فقط من خلال المنظور الحضارى - أى علاقته مع مجتمعة وحضارته ومعتقداته - وإنما أيضاً من خلال منظور الزمان والمكان - أى علاقته مع الكون أجمع » .

ولقد امتد تيار الأفكار التى أدت إلى ظهور الحركة التكعيبية فى الرسم إلى كل مجالات الإبداع الفنى وأثر فيها بصورة مباشرة وغير مباشرة . ففى مجال الشعر نجد **ت. س. إليوت** يقول فى معرض الحديث عن موسيقى الشعر :

« إن من وظائف النظم الأساسية فى عالم تحكمه النسبية أن ينشئ صلات عن طريق التجاوب الموسيقى . فموسيقى أية كلمة تكون دائماً فى حالة «تقاطع» . . فهى تتقاطع مع موسيقى الكلمات التى تحيط بها ، ثم مع موسيقى القصيدة ككل ، ثم مع معناها المباشر ، ثم مع جميع المعانى التى توحى بها ، وأيضاً مع كل المعانى التى استُخدمت فيها من قبل سواء فى الفن أو الحياة » .
وقد لمس كثير من النقاد تأثير الحركة التكعيبية فى شعر **إليوت** و **إزرا باوند** ، خاصة فى استخدامها للأدب والتاريخ والأسطورة لتقديم مستويات متعددة ومتلازمة فى القصيدة للتجربة الإنسانية المعاصرة ، وأيضاً فى مزجهما بطريقة المونتاج لأماكن وأزمنة

مختلفة ، لإثراء المعنى عن طريق تقديم وجهات نظر مختلفة تتزامن فى نفس اللحظة .

والواقع أن تكنيك المونتاج السينمائى الذى استُخدم فى الأدب كثيراً فيما بعد يُعتبر نتيجة مباشرة لتأثير الأفكار التكعيبية على الفن السينمائى . فلقد اتجهت السينما بعد خروجها من المرحلة التقليدية نحو التكعيبية خاصة فى أعمال المخرج العظيم **أيزنشتاين** الذى قال :

« إن ما أرمى إليه دائما هو تشريح وتقطيع أى حادثة ما إلى عدد من اللقطات المتناثرة ، ثم تجميع تلك اللقطات عن طريق المونتاج فى شكل جديد معقد ، يُظهر كل لقطة فى شكل جديد تماماً من خلال علاقاتها مع اللقطات الأخرى » .

لقد كان المونتاج هو التكنيك الذى حققت السينما من خلاله تكعيبية الحقيقة - أى تعدد أوجهها ، وتداخل علاقاتها ، ونسبية معناها المستمر .

أما فى مجال الرواية فيظهر تأثير المدرسة التكعيبية فى أعمال **جيمس جويس** - خاصة روايته الأخيرة **جناوة فينيجان** . بل إننا نجد **جويس** فى روايته الأولى **صورة الفنان كشاب** يحاول التخلص من المنظور التقليدى عن طريق استخدام تكنيك تيار اللاوعى الذى تختلط فيه جزئيات التجربة الإنسانية وتتشابك دون التقيد بالزمن بمعناه الواقعى التقليدى . ولقد حاول روائيون عديدون قبل **جويس** استخدام المنظور التكعيبى المزدوج فى أعمالهم مثل **ألدوس هكسلى** و **فيليب توينبى** .

ولكن أكثر روائى معاصر تأثر بالتكعيبية فالتصقت باسمه كان **أندريه جيد** . فقد حاول **جيد** دائما ، فى جميع أعماله ، أن يفحص التحولات المستمرة التى تطرأ على الحقائق ، بل وأيضاً على الخيالات ، وحاول أن يدرس تأثير انتفاء مبدأ الاستمرارية ومبدأ اليقين بصورة متعمقة .

وحاولت أيضا القصاصة **جرترود ستاين** أن تترجم فى أسلوبها النثرى الفكرة التكعيبية المستقاة من فلسفة **وايت هيد** والتى تقول بأن الاستمرارية ليست فى حقيقتها سوى تكرار فى عملية تغيير مستمرة طول الوقت . فنجد الكاتبة تكرر جملها بنفس الصورة تقريبا ، وتُدخل تغييرات طفيفة لا نكاد نلحظها فى كل جملة ، فيتسع المعنى ويتغير رغم التكرار الظاهرى الممل . وعلى سبيل المثال نجدها تقول فى قصتها **الآنسة فير والآنسة سكين** :

«كان لهيلين فير منزل لطيف . كانت مسز فير سيدة لطيفة . وكان مستر فير رجلاً لطيفاً . كان لهيلين فير صوت لطيف . صوت يستحق أن تصقله . لم يقلقها بذل الجهد . بذلت جهداً لتصقل صوتها . لم تجد الحياة ممتعة فى المكان اللطيف الذى عاشت فيه دائماً . ذهبت إلى مكان فيه أشخاص يحاولون صقل أشياء - أصوات أو أشياء تحتاج إلى صقل . هناك قابلت جورجينا سكين التى كانت تصقل صوتها الذى أعتقد البعض أنه لطيف .

عاشتا معا . عاشتا معا وأحستا بالمتعة . لم تكن متعة عظيمة . ولكنها كانت متـعة . كانتا مستمتعتين وعملتا بانتظام على صقل صوتيهما - كانتا مستمعتين - كانت جـورجينا سكين مستمتعة هناك وكانت تعـمل بانتظام . منتظمـة فى الاستمـتاع . ولكنهـا كانت تستمتع فى الحـدود اللازمة لإنسان يريد أن يكون مستمتـعاً حقا . كانت الاثنتان مستمتعتين حينئذٍ وهناك . . وتعملان حينئذٍ وهناك »

.

والقارئ لهـذا المقطع قد يجد فى أسلوبه شبـهاً كبيـراً بلوحة تكعيبـية كلوحة **براك** مـثـلاً المسـمـاة « الزجـاج والمكان والنوت الموسيـقية » - التى تتكرر فيـها الحدود المجردة لكل من الموتـيفات الثلاث ، مع تغيير طفيف ، وكأن الأشكال تتغير دوماً وتتمدّد مع التكرار ، وكأنهـا فى حالة حركة مـستمـرة ، بينما يخلق التكرار نوعاً من الإحساس الخادع بالاستمرارية والثبات ، كما قد يرى فى تجاهل **ستاين** للزمان والمكان والشخصية (كما يظهر فى استخدامها « لحينئذ » و « هناك ») ، وتجاهلها لأى صـفات ، سوى الأسماء المجردة ، إلتزاماً بتكنيك التكعيبيين .

أما فى عـالم المسرح فـربما كانت مـسرحيـة الكاتب الإيطالى **لويجى بيراندللو** المسماه **ست شخصيـات تبحث عن مؤلف : كوميـديا فى طور التأليف** هى أصدق ترجمـة مسرحيـة لفلسفة وأسلوب المدرسة الـتكعيبـية . ففى هذه المـسرحيـة نجد **بيراندللو** يحاول أن يحطم التـصور التقليدى الفوتوغـرافى للواقع ، ويُعمل

فيه فكرة ليكشف لنا مستوياته المتعددة ، وعلاقاته المتشابكة ، مستنداً إلى فلسفة التكعيبيين ، ومؤكداً لفكرة نسبية كل شئ ، وفكرة استحالة المعنى المطلق لأى شئ ، وفكرة أن الاستمرارية إنما هى وهم . وتتبلور تلك الفلسفة فى المسرحية درامياً بحيث تظهر فى صورة مشكلة تعريف الشخصية فى ضوء العلاقات المتعددة المتغيرة ، وفى ضوء التباين بين ظاهر الأمور وباطنها .

بل إن القارئ لأعمال **بيراندللو** كلها يدرك أن مشكلة تعريف الشخصية تمثل محوراً أساسياً فى رؤيته الدرامية ، فنجده مثلاً فى مسرحية **كل على طريقته** (١٩٢٣) يقول على لسان إحدى الشخصيات : « إن شخصية أى انسان تتكون من فكرته هو عن نفسه إلى جانب فكرة كل إنسان يعرفه عنه » .

وفى **ست شخصيات تبحث عن مؤلف** يتوجه **بيراندللو** بصورة مباشرة نحو التكعيبية . فهو أولاً يسميها «مسرحية فى طور التأليف » - أى لم تكتمل بعد . إذن فهى - كأى عمل فنى تكعيبى - تحوى عنصر إمكانية التغير المستمر اللانهائى ، وهى أيضا لا تدّعى لنفسها المعنى المطلق الذى أنكره التكعيبيون .

وثانياً فإننا نجد **بيراندللو** فى هذه المسرحية يفتت الواقع المقدم على خشبة المسرح إلى مستويات متعددة ، تتصارع وتتلاحم ، ويهدف إلى ربط تلك المستويات بالمتفرج ، بحيث يصبح هو نفسه أحد تلك المستويات التى لا تنفصل عن المسرحية . وينبغى هنا أن ننوه بأن مجرد اشراك المتفرج فى العرض لا يعنى

بالضرورة عملاً فنياً تكعيبياً . فلقد شهد القرن العشرون محاولات عديدة لجعل المتفرج جزءاً إيجابياً فى العرض المسرحى ، وذلك لاغراض متعددة ، وكانت معظم تلك المحاولات تقليداً لهذا التكنيك التكعيبى - أى تكنيك تحطيم الحاجز الوهمى بين العمل الفنى وواقعة المباشر - دون أن تكون ترجمة لفلسفة المدرسة التكعيبية .

لقد استهدف الداديون مثلاً استثارة غضب وسخط المتفرج كهدف فى حد ذاته . كذلك حاول الكاتب الألمانى **بريخت** فى مرحلة أخرى استثارة فكر المتفرج عن طريق تقنيات ما أسماه بالمسرح الملحمى الذى ألغى فيه عنصر التعاطف مع الشخصيات المسرحية ، وركز عل القضايا والأفكار ، وقسم فيه العرض إلى جزئيات كل منها متكامل فى ذاته ، ويدعو إلى المتعة والتفكير . ولكن مسرح **بريخت** رغم تركيزه على العقل ، ورغم تطلبه مشاركة المتفرج الإيجابية لا يعتبر مسرحاً تكعيبياً بحق . فهو لا يستند أساساً إلى فكرة النسبية ، ويتبنى الفكر الماركسى ، ويحاول أن يحدد الإطار الذى يشارك فيه المتفرج إيجابياً بحيث يصل به إلى رفض الرأسمالية واعتناق الاشتراكية .

أما **بيراندللو** فلم يقدم أى معطيات ثابتة فكرية أو عقائدية ، وإنما كان يحاول أن يجذب المتفرج إلى داخل لوحة تكعيبية باعتباره أحد مستويات الواقع ، بحيث أصبح المتفرج بالنسبة له ، وبالنسبة للمسرحية ، كقطعة الكولاج التى كثيراً ما استخدمها

التكعيبيون فى لوحاتهم بغرض كسر الفواصل بين عالم الألوان والتشكيلات الهندسية وعالم الواقع الخارجى للوحة ، وبحيث أصبحت خشبة المسرح وكأنها أحد المستويات التى تتقاطع مع مستويين آخرين من مستويات الحقيقة وهما الفن والواقع .

يقول **بيراندللو** فى مقدمة المسرحية أنه يهدف إلى إشراك جميع العناصر الموجودة فى المسرح من شخصيات مرسومة ، وممثلين ، ومؤلف ، ومخرج ، ومدير مسرح ، ونقاد ، ومتفرجين (سواء من الخارج أو من المشتركين فى العرض المسرحى) ، بحيث يستنفد كل إمكانيات التنويع الممكنة على الصراع . والصراع هنا ، أو الصدام ، هو صدام بين الفن والواقع .. بين محاكاة الحياة على خشبة المسرح ، وأحداث الحياة خارج المسرح .

والمسرحية يمكن اعتبارها دراسة فى تعدد مظاهر الشخصية الإنسانية نخلص منها إلى أن أى حدث فى الواقع إنما يتم على مستويات متعددة من التجربة بحيث يصبح معناه دائماً نسبياً .

وكما أعمل الرسام التكعيبى فكرة فى تحليل الأشياء المرئية نجد **بيراندللو** هنا يُعمل فكرة فى تكسير الحدود المعروفة للحبكة المسرحية التقليدية مستخدماً أسلوب المنظور الجديد أو المنظور المركب . وهذا المنظور ينشأ من الخلط بين بعض المشاهد المسرحية وبعض الأحداث الواقعية ، بحيث تبدو المشاهد المسرحية وكأنها الواقع ، بينما تبدو الأحداث الواقعية وكأنها مجرد مشاهد تمثيلية . فنحن نرى فى بداية ذلك العمل - الذى يصعب أن نسميه

مسرحية – نرى مجموعة من الممثلين يقومون بأداء أدوار ممثلين فى فرقة مسرحية أثناء بروفة مسرحية من مسرحيات **بيراندللو** نفسه : وهكذا نجد أن تفتيت الواقع إلى مستويات متغيرة قد بدأ منذ البداية . وأثناء البروفة تدخل إلى المسرح العارى أسرة مكونة من ستة أشخاص : أب أم وأبناء شرعيون وأبناء غير شرعيين . وتطلب الأسرة من المخرج أن يسمح لهم بتمثيل أو (تحقيق) حياتهم على المسرح فى صورة درامية حيث أن مؤلفاً ما قد (فكرهم) دون أن يكتبهم فى نص . وهنا يجد المتفرج نفسه وقد تحللت أمامه فكرة الممثل ، وفكرة الشخصية المسرحية ، إلى العديد من المستويات المتصارعة .

أما القصة التى تود الأسرة تمثيلها فهى قصة أسرة تفككت نتيجة لخيانة الأم لزوجها . ويعترض مدير الفرقة ، ولكن الأسرة تشرع فى التمثيل رغم إرادته ، ويحاولون تمثيل قصتهم الحزينة ، ولكنهم يقابلون صعوبات بالغة فى محاولة شرح الحبكة التى يودون تحقيقها درامياً للممثلين المحترفين الذين يشاهدونهم ويعلقون عليهم . أى أن القصة الحقيقية تصطدم مع القصة كما يجب أن تكون درامياً من وجهة نظر الممثلين المحترفين . ويقول لهم الأب فى محاولة يائسة لإفهامهم: «إنما الدراما فينا نحن ونحن الدراما».

وتصل جهود الشخصيات الست إلى طريق مسدود فى النهاية حين تطلق إحدى الشخصيات – وهى شخصية الإبن التعس – الرصاص على نفسها فى نوبة يأس . وهنا يتدخل الممثلون

المحترفون ليعلنوا أن هذه اللحظة هى الذروة الفنية لدراما الأسرة ، متجاهلين أنها لحظة انتحار حقيقى على مستوى آخر . وهنا يصيح الأب : « تظاهُر ؟ إنها الحقيقة يا سيدى . الحقيقة » . ولكن المخرج يكون عند هذا الحد قد وصل إلى نقطة اللا مبالاة التامة فيجيب : « تظاهُر - حقيقة ؟ . ما أهمية ذلك ؟ لقد ضاع يوم كامل بسببكم ! . . يوم كامل ! » .

ومبالغة فى تأكيد تعدد مستويات الواقع وتصارعها ، وتأكيد استحالة تكامل أى معنى مطلق ، نجد نهايات فصول المسرحية تشبه إلى حد كبير ما أسماه التكعيبيون بالتقاطع - أى تقاطع مستوى مع مستوى آخر دون سبب مفهوم . فنجد المخرج يتدخل فجأة لينهى البروفة فى المسرحية داخل المسرحية حتى يستجمع شتات فكرة ، وتكون النتيجة أن المسرحية الحقيقية أيضا تتوقف ، ومعها أيضا الدراما التى تحاول الشخصيات الست تمثيلها . أما نهاية الفصل الثانى فتأتى نتيجة خطأ أحد عمال المسرح الحقيقى بحيث تتوقف الأحداث على جميع المستويات إذ يُسدل الستار خطأ تاركاً الأب والمخرج اللذين ينتميان إلى مستويين مختلفين وحدهما فى مقدمة المسرح .

ويبدو تأثر **بيراندللو** بالمدرسة التكعيبية أيضاً فى استخدامه للكولاج - أى إدخال عناصر غريبة على العمل الفنى بغرض تأكيد تعدد المستويات ، ونجده يستخدم الكثير من الإكليشيهات المسرحية . فالمخرج على سبيل المثال يستخدم الكثير من هذه الإكليشيهات ،

ويقـدم وجهة نظر المسرح التجـارى فى تقديم الدراما ، ولهذا نجده يفشل فى التوسط بين مجموعة الممثلين المحترفين وبين الشخصيات الست التى تقودهم أقدامهم من الواقع إلى عالم المسرح التجارى .

إن هذه الشخصيات الست تنتمى إلى الحياة ، ولا تنتمى إليها فى الوقت نفسه : إنها مثل تلك الأشياء التى كان **بيكاسو** «يغتالها» (فى تعبيره) حتى يتمكن من تحقيق الكلية والشمول فى تصويرها . وظهورهم المرتجل على خشبة المسـرح الواقعية التى هى فى نفس الوقت خشبة وهـمية (فى المسرحية داخل المسرحـية) إنما هو تعرية للواقع المسـرحى ، وللوهم المسـرحى فى نفس الوقت ، وبمجـرد دخولهم تبـدأ مستويات الواقـع على المسرح وخارجه فى التـحرك وتغيير مواقعها .

يقول الأب محاولاً شرح موقف الأسرة :

« إن الدراما فى نهـاية الأمر هى عودة الأم إلى منزلى ومعـها أسرتهـا التى ولدتها خـارج المنزل وحاولت فـرضهـا على الأسرة الأصلية . إن هذه العودة تنتهى بموت الإبنة الصغيرة ومأساة الولد وهروب الإبنة الكبـرى . إن مصيـر تلك الأسرة الجـديدة محـتوم لأنها جسم غريب .

وهكذا ترى أنه بعـد الكثيـر من المعـاناة لم يتبق سـوانا نحن الثلاثة : أنا والأم والأبن » .

ولكن الإبن يلزم خلفية المسرح ، ويرفض المشاركة فى تلك الدراما بدعوى أنها (مجرد أدب) . ويحتج الأب دون جدوى قائلاً بأن هذه الدراما هى الحياة نفسها وقمة الانفعال بها . ولكن الإبن يصر على عدم الإشتراك فى ذلك التصوير المسرحى ، ليس بدعوى أنه ينتمى إلى الحياة الواقعية - فهو فى الواقع لا ينتمى إليها اذ نجده يقول لمدير الفرقة : « إنما أنا مجرد شخصية لم يُكتب لها التحقيق الدرامى بعد . إننى لا أرتاح لوجودى وسط تلك الفرقة المسرحية . أرجوك . دعنى وشأنى » . وهكذا نرى الإبن : شكلاً يجب أن نحاول استيعابه فى التشكيل الدرامى - ربما رغم أنفه - مما يضيف بعداً جديداً وصعباً لذلك العرض المسرحى .

إن الهدف الذى يسعى إليه الأب من تمثيل حياته هو الوصول إلى زاوية محددة يرى منها الأحداث حتى يتضح له معناها . وهو فى هذا إنما يردد فكرة **وايت هيد** القائلة بأن تعريف أى شئ لأى منا إنما هو الزاوية التى نراه منها . فالأب يقول : «إنما تكمن الدراما فى كل ذلك . . فى ضميرى . . فى ضمير كل منكم . إننا نتصور أن الضمير واحد فينا جميعا . . ولكنه فى الحقيقة له أوجه متعددة - فكل إنسان ضمير مختلف - ضمائر متباينة . وهكذا يتولد الوهم بأن صورتنا واحدة عند الجميع . . بأننا نمتلك شخصية متفردة تطبع كل أعمالنا بطابع واحد متفرد . ولكن هذا ليس حقيقياً . ندرك هذا عندما نبدأ فى عمل ما ثم نتوقف فجأة ونحس وكأننا قد تعلقنا فى الهواء على خطاف » . والأب هنا إنما

يعبر عن النظرة التكعيبية التى ترى الشئ دائماً فى حالة تعلق ، لا فى حالة اكتمال . وعندما يرى الأب الممثلين المحترفين يمثلون دوره مستخدمين وسائل وإكليشيهات المسرح التقليدية التى يعتبرونها ضرورية لبلورة معنى الحدث - أى عندما ينتقل الواقع من مستوى إلى آخر أو عندما تتغير وجهة النظر لنفس الشئ - يصيح : « لا أدرى ماذا أقول . . هذه كلماتى . . ولكن وقعها زائف - لكأن صوت الكلمات قد تغير تماما » .

إن **بيراندللو** يبدو وكأنه يدعونا طول الوقت لتأمل نسيج مسرحيته مثل الفنان التكعيبى الذى يدعونا إلى فحص الخامات المتنوعة التى تشكل نسيج لوحته . وتلك الدعوة فى حد ذاتها تمثل تحدياً لهدف الدراما التقليدية وهو إيهام المتفرج بأن ما يراه إنما هو انعكاس للواقع فى مرآة الفن . إن أكثر المشاهد اقتراباً من الطبيعية فى هذه المسرحية هو ذلك المشهد فى البروفة بين مدام **بيس** وابنه الأم . تتحدث مدام **بيس** مع الفتاة بصورة طبيعية هادئة ، وفوراً يبدأ الممثلون فى الاحتجاج ويوافق المخرج قائلا : « التمثيل هو هدفنا هنا . نعم . . الطبيعة إلى حد معين ولكن لا يجب تجاوز هذا الحد » . إن مدير الفرقة هنا لا يريد الواقع على خشبة المسرح وإنما يطلب من ممثلة خلق إيهام بسيط بأن ما يجرى على خشبة المسرح هو الواقع . ولكن الأب يحتج على هذا الإيهام قائلاً إن خلق مثل هذا الإيهام بالواقع يحول الدراما إلى مجرد لعبة مسلية ، ولكن الممثلين يحتجون : « نحن ممثلون جادون - فنانون » .

ولكن الأب يرد فى يأس : « كم أود لو تركتم تلك اللعبة التى تسمونها بالفن والتى تعودتم على ممارستها هنا كفنانين . دعونى أسألكم مرة أخرى من أنتم ؟ » ويثور المخرج بالطبع فهو لا يمكن أن يسمح لمجرد شخصية درامية أن تلقى الشكوك حول حقيقة شخصيته ودوره : « لن أسمح لمجرد شخصية أن تأتى لتسألنى من أنا ! » ولكن إجابة الأب توحى بأن الشخصيات الفنية قد تكون أكثر واقعية من الأشخاص الواقعيين ، فكل شخصية درامية لها حياتها المتفردة . . « إن الحقيقة يمكن أن تكون مجرد مظهر » كما يقول الأب : « لا ينبغى أن تعتمد اعتماداً كبيراً على فكرتك عن حقيقتك كما تبدو لك اليوم ، فحقيقتك اليوم يمكن أن تصبح كحقيقتك بالأمس . . مجرد وهم من أوهام الغد » .

وفى مسرحية أخرى هى مسرحية **كل على طريقته** نجد **بيراندللو** يحلل مستويات الحقيقة ويفحصها من خلال مناقشة فكرة الإيهام الدرامى . فهو هنا يُشرك المتفرجين فى العرض مباشرة إذ يضع وسطهم الأشخاص الحقيقيين الذين تصور المسرحية قصة حبهم . ويقوم هؤلاء الأشخاص الحقيقيون بالتجمع فى ساحة المسرح بعد الفصل الأول معبرين عن سخطهم لأن **بيراندللو** استمد مادة المسرحية من حياتهم الخاصة ويهددون بالاعتداء على المؤلف وإيقاف العرض المسرحى . وتبين الإرشادات المسرحية التى كتبها **بيرانديللو** للمسرحية مدى اهتمامه بالتجريب فى محاولة إيجاد مسرح متعدد الأبعاد ، فهى تقول :

« فى هذا المشهد، الذى يدور فى ساحة المسرح الخارجية أثناء خروج المتفرجين ، سوف ندرك أن ما قُدم على المسرح على أنه واقع لم يكن سوف اختلاق فنى نتيجة لظهور الشخصيتين الرئيسيتين فى المسرحية وسط الجمهور فجأة فى ساحة المسرح الخارجية فى الاستراحة ، وسوف ينتج عن هذا أن المتفرجين المنهمكين فى مناقشة الواقع الوهمى للمسرحية سوف يجدون أنفسهم فجأة على مستوى آخر من مستويات الواقع ، أما فى الاستراحة التالية ، بعد الفصل الثانى ، فسوف ينشب الصراع بين تلك المستويات الثلاثة للواقع : شخصيات المسرحية ، والأشخاص الذين تُصور المسرحية حياتهم ، والمتفرجين . وسيتولد الصراع حين يهاجم أبطال القصة الحقيقيون الممثلين ويحاول المتفرجون التدخل بينهم » .

لقد حاول **بيراندللو** فى مسرحياته أن يحطم الدراما التقليدية متبعاً أسلوب التكعيبيين فى تحطيم معطيات الحواس بهدف استكشاف أبعاد ومستويات الحقيقة وتقديمها فى كليتها . إن هدف الفنان كما قال **جلايتزس** هو تصوير الواقع فى حقيقته . وحقيقة الواقع فى أى جزء من جزئياته هى تبلور دائم ومستمر من خلال علاقات متشابكة لا نهائية ، ومن خلال نسبيات لا تتحدد أبداً لتصل إلى المطلق . إننا لا نستطيع أن نُسدل الستار الختامى على أى مسرحية من مسرحيات **بيراندللو** إلا بطريق الصدفة أو الخطأ إذ أن العمل الفنى كأى شئ آخر لا يكتمل أبداً ، وليست هناك

حـدود واضـحة ومـحـددة بين الفن والحـيـاة . لقـد أدرك الفنان التكعيبى استـحالة فصل وتحديد كنه أى معطى من معطيات التجربة ، لذا ركز جـهده فى تصـوير نشأة وتبلور مـعطيات التـجربة فى رحلتها اللانهائية نحو الحقيقة المطلقة .

جارى والباتافيزيقية أو فلسفة العبث

كتب الفريد جارى (١٩٧٣ - ١٩٠٧) ثلاث مسرحيات فقط كلها تدور حـول شخصيـة واحدة تدعى **أوبو** . ورغم ذلك فـقد حقق شـهرة عالمية إذ أن هذه المسـرحيات الثـلاث وكذلك أسلوب حياة **جارى وأيضاً** فلسفـته المتفردة قد أحدثت ثورة واسـعة الأبعاد فى المسرح الغربى حتى أن أحد المؤرخين للمـسرح الغربى المعاصر كتب يقـول : « عندما نطق المـمثل **فرمين جمييه** أول كلمـة فى مسرحية **جارى** الأولى الملك **أوبو** تغير مسار المسرح الغربى تماما » . (**أ. ب. هنكشليف - العبث** - ١٩٦٩) .

لقد كانت هذه المسـرحية فى رأى **هنشكليف** البداية الحقيقية لمدرسة العبث التى ازدهرت فى الخـمسينيات . عُرضت مسـرحية **الملك أوبو** لأول مـرة على المسرح الجـديد (تياتر نوفـو) فى ١٠ ديسـمبـر عام ١٨٩٦ . وتدور المسـرحـية حـول فكرة الطمع فى السلطة واغتصابهـا ، وتذكرنا كثيراً فى هيكلها الأسـاسى بمسرحية شكسبير الخالدة **ماكبث** . ففى بداية المسرحية نرى زوجة **أوبو** تحثه على قتل الملك **ونسـسلاس** واغتصاب عرشه . ونعلم من الحوار أن **أوبو** هذا - وهو رجل بدين فظ الملامح قذر الثياب - كان من قبل ملكاً على أراجون وأصـبح الآن قائداً فى جيش **ونسـسلاس** ملك بولندا . وفى اليوم التالى يذبح **أوبو** كل الأسرة المالكة ولا يفلت من المذبحة سوى **بوجرلاس** ، الوريث الشرعى للعرش ، ووالدته . ويدير **أوبو** المملكة عن طريق القتل ونهب الأموال والممتلكات -

بل إننا نشاهد فى أحـد مشاهد المسرحيـة طابوراً طويلاً من النبلاء ورجال القضـاء والبنوك يُعدمون بواسطة آلة « تفتـيت العقول » . وعندما ينتهى **أوبو** من نهب أموال المملكة يشن الحرب على قيصر روسيـا الذى كان قد اقـسم أن ينتقم لمصرع قـريبه **ونسـلاس** ، وتتمخض الحرب عن هزيمة **أوبو** ويفر هو وزوجته إلى فرنسا !

والحبكة هنا - كما نرى - لا تأتى بالجديد ولا تعكس الهجوم الضارى الذى تضمنته المسرحيـة على تقاليد الدراما السائدة حينذاك ، وعلى القيم البـرجوازية التى كان المجتـمع الفرنسى يعتنقـها فى ذلك الوقت . وهذا الهجـوم الضارى يتـضح بالدرجة الأولى فى شكل المسرحية وتكنيك العرض المسرحى كما قُدم ذلك المساء .

ويصف لنا **روجر شاتوك** فى كتابه **سنوات الوليمة** (١٩٥٨) هذا العرض فيقول :

« قبل رفع السـتار حُملت إلى مقـدمة المسرح منضـدة مغطاة بخيش بـال . ثم ظهر **جارى** ، وكان بالـغ الشحوب ، وقد زين وجهـه مثل الساقطات ، ووقف فى مواجهـة أضواء المسـرح. أخذ **جارى** يتحدث إلى الجمهور فى صوت ممل خـال مـن التعبير بينما يرتشـف بعصبية من كـوب فى يده ، واستمر علـى هذا الحال لمدة عشر دقائق كاملة حتى بلغ الغيظ من المتفرجين مبلغه . تحدث عن كل من شاركوا فى العرض ، وشكرهم ، وعن الأقنعة التى سوف يرتديها الممـثلون ، وأعلن أن الفصول الثلاثة الأولى من المسـرحية لن تتخللها اسـتراحة . ثم ختم حديثـه قائلاً : على أية حال . .

لدينا ديكور رائع . وكـمـا أنه من الممكـن أن نستـخـدم طلقـات الرصاص فى عام ١٠٠٠ للايحاء بمنظر لمسرحـية تجرى أحداثها فى الأبدية أو اللا زمـان ، فـإننا فضلنـا ديكوراً لمسرحـيـتنا به أبواب تكشف عن حقـول من الجليد تحت سمـاء زرقاء ، وبه مدفـأة بها ساعات حائط يتأرجح بندولها بشـدة فتصبح الساعات أبواباً . وبه أيضا أشجار نخيل تنمو أسـفل سرير ، وذلك حتى تتمكن الأفيال التى تقطن أرفف المكتبـة من التـجـوال والتنزه بينهـا . أمـا عن الأوركستـرا ، فقد استغنـينا عنها ، واستعضنا عـنها ببعض آلات الايقاع والبيـانو ، وستأتيكم الموسيقى مـن خلفـية المسرح «أوبوية» الطابع . أمـا عن الحدث . . فـهاهو يوشـك أن يبـدأ ومســرحـه بولنــدا . . أو فى معنى آخر . . لا مكان .

وبعد هذه المقدمة اختفى **جارى** ودخل الممثل **فرمين جيمييه** إلى مقـدمة المسرح وصـاح فى المتفرجين بكلمـة نابية . ولم يكن أحد قد جرؤ من قبل على استـخدام مثل هذه الألفاظ على المسرح ، ومن ثم فـقد ثار المتـفـرجون ، وعم الهـرج والمرج والصـفيـر والشتائم » ! .

لقد استطاع **جارى** فى هذه المســرحية خلق نوع جـديد من المسرح لا يقوم على مناقشـة أو عرض الأفكار والقضايا الجادة وإنما يهدف أسـاساً إلى تفريغ جـميع الأفكار والقـضايا من جديتـها ، وإظهار عـبثيـتهـا عن طريق المعالجة المرحـة الساخـرة فى الحوار ،

وأيضا عن طريق تغيير شكل العرض المسرحى تغييراً جذرياً بحيث يصبح لوحة تتسم فى آن واحد بالعبثية والهزلية .

لقد كان **جارى** - باستثناء مسرحية **بيرجنت لهنريك إبسن** يمقت المسرح الغربى المعاصر بكل تقاليده التى تحد من حرية الممثل وتجبره على الالتزام بالواقعية . وحاول فى مسرحيته الأولى أن يجعل الممثل يستخدم ما أسماه بالإشارة أو الجملة المعبرة العالمية ، بدلاً من الاعتماد على اللغة ، وفضل استخدام الأقنعة على المكياج المسرحى ، كما فضل استخدام اللوحات المكتوبة للدلالة على المكان بدلاً من تغيير الديكور .

وفى محاولته لإيجاد شكل جديد للعرض المسرحى صمم **جارى** ديكوراً لمسرحيته استعان فيه بالفنان **بونار** والفنان **فيلار** والرسام العالمى **تولوز لوتريك** . ويصف لنا **آرثر سيموتز** فى كتابه **دراسات فى الفنون السبع** هذا الديكور فيقول : «رُسمت المناظر بالأسلوب الذى نعهده فى رسوم الأطفال بحيث تختلط فيها المناظر الداخلية بالمناظر الخارجية والمناطق الحارة والجليدية . . بل وأيضا المعتدلة . ففى خلفية المسرح كانت هناك أشجار تفاح مزهره تحت سماء زرقاء صافية وسطها نافذة . وكانت هناك مدفأة ومن خلال تلك المدفأة كانت الشخصيات تدخل وتخرج . وفى يسار المسرح تجد منظراً يصور سريراً بأسفله شجرة عالية ، بينما يهطل

الجليد . أمـا يمين المسرح فكان يصوّر أشـجار نخـيل باسقـة. أما بجوار الباب فكان هناك هيكل عظمى يتأرجح» .

كـان هذا الديكور مضـحكاً وجـديداً وبالغ الغرابة حـتى أن الشاعر الأيرلندى **و. ب. ييتس** قال بعد العرض متـعجباً : «بعد مثل هذا العـرض .. وبعد **مالارميه وفيرلين** والآخـرين لا يمكن لأحـد أن يأتى بجـديد . حـقـاً .. لن يـأتى بعـدنا سـوى الإله الوحشى ! » .

أجل كانت رؤية **جارى** للعالم رؤية وحشية لا يحكمها منطق أو عقـل ، وحاول **جارى** أن يعبـر عن هذه الـرؤية فى أسلوب حياته وفى مسرحياته ، فتبع المسرحية الأولى بمسرحية ثانية (١٨٩٧ - ١٨٩٨) تدور أيضاً حول شخصية **أوبو** . ولم يصور **أوبو** ملكاً هذه المرة ، بل جعله شخصاً عـادياً يمثل الشر بعينه ، ويسحق كل من يقف فى طريقـه . وتبع **أوبو** الثانية هذه بمسـرحية أخرى هى **أوبو فى الاغلال** وكانت تقليداً ساخراً هزليـاً للكلاسيكية اليونانية **أورفيوس مقيداً** وفيها صور **أوبو** وقد قرر أن يصبح عـبداً ليقلب القيم التقليدية التى ترتبط بفكرة السيد والعبد .

أما عن أسلوب حياته فقد عمد **جارى** إلى التغريب فى ملبسه وتصـرفاته لدرجـة الخلل ، وأطلق على نفسـه لقب الملك **أوبو** ، ووصف مسكنه ببلاط **أوبو** وحاول أن يتوحـد فى سلوكه مع هذه الشخـصية الوهميـة ، مستـخدماً الخمـور والمخدرات مما أدى إلى انهياره وموته فى سن صغيرة .

الباتافيزيقية أو فلسفة الحلول الخيالية - أو فلسفة اللافلسفة:

لم يكن **جارى** يؤمن بالفلسفات المتوارثة التى تفسر عالم ما وراء الطبيعة ، وكان يرى العالم ككم مجهول من الظواهر العارضة التى تفتقر إلى المنطق ، لذلك ابتدع فلسفته الخاصة التى أسماها بالباتافيزيقية ساخراً بها من كل الفلسفات الميتافيزيقية .

وصف **جارى** الباتافيزيقية بأنها : «العلم الذى يشرح منطقة ما بعد الميتافيريقية . . إنها علم الحلول المتصورة أو الخيالية . . ومن خلالها نصل إلى مستوى آخر من مستويات الوجود ، ونحقق وعياً لا يمكن تحقيقه ، وبها نصل إلى القوانين التى تحكم العوارض والاستثناءات فى الكون بحيث نكتشف العالم الذى يكمل عالمنا التقليدى . . . . إن القوانين التى تحكم العالم التقليدى ماهى إلا استثناءات متكررة أو حقائق عارضة ليست لها حتى ميزة التفرد . . إننا فى الواقع يمكن أن نعتبرها استثناءات استثنائية » .

لقد كان **جارى** يحاول عن طريق فلسفته هذه أن يستشف عوالم جديدة ومناطق وعى جديدة خارج العوالم المنظورة والنظريات الميتافيزيقية التقليدية . وكان فى هذا متأثراً إلى حد كبير بالرمزيين إذ لا يجب أن ننسى أن **جارى** بدأ حياته شاعراً رمزياً تحت جناح المدرسة الرمزية فى الشعر - تلك المدرسة التى بلغت أوج ازدهارها إبان حياته .

ولكن ما يميز **جارى** عن الرمزيين هو افتقاده للإيمان بوجود عالم روحى وراء الظواهر الطبيعية ، تكتسب فيه الظواهر العارضة معناها الكلى وحقيقتها الخالدة ، وكان فى هذا أقرب إلى كتاب العبث منه إلى الرمزيين .

إحياء الباتا فيزيقية بعد الحرب العالمية الثانية :

اجتمع نفر من المعجبين **بالفريد جارى** برئاسة **د. ى. ل. ساندو** بعد الحرب العالمية الثانية وأسسوا ما أسموه **بكلية الباتا فيزيقية** التى أصبحت فيما بعد أكثر الحركات الفكرية فى العالم الغربى إغراقاً فى الغرابة وبعداً عن المألوف . . وجعلوا لها تنظيماً معقداً ، وأرسوا لها قواعد ولوائح مغرقة فى العبثية ، بحيث أصبحت أشبه بنكته تؤخذ مأخذ الجد . وكان من بين الأعضاء المؤسسين القصاص **ريمو كوينو** والشاعر **جاك بريفير** والرسام **جان دوبوفيه** والفنان **بوريس فيان** و **رينيه كلير** والكاتب المسرحى المعروف **يوجين يونسكو** .

واعترف هؤلاء المؤسسون بأن علم الباتا فيزيقية علم يصعب تعريفه . . بل إن **روجر شاتوك** ، وكان من أعضائها البارزين ، قال : « من التناقض أن نحاول تعريف الباتافيزيقية من خلال أى شئ سوى الباتافيزيقية نفسها . الباتافيزيقية لا تُعّرف إلا بنفسها» . ومضى **شاتوك** ليشبّه إدراك كنه الباتافيزيقية بالنيرفانا فى الفلسفة البوذية - أى لحظة التكشف الصوفى التى لا تُعّرف إلا عن طريق ذكر كل ما هى ليست عليه ! .

لقد كانت الباتافـيزيقية هى أقصى رد ضد العلوم الطبـيعية أو الفيزيائيـة ، ونوع الوعى بالحقيقة الذى خلقـته تلك العلوم . لقد كان **جارى** يعتـقد بأن الحيـاة فى عالم يسـير حسب قـوانين ثابتة معلومة ، ويحكمه قـانون السببية ، من شأنه أن يشكّل عبـئاً ثقيلاً على خيـال ووجدان الفنان الحســاس ، وكان يؤمن بأن دكـتاتورية العلوم الطبيعية أقسى من الدكتاتورية السياسية لأنها تخلق نوعاً من الإحباط الإنسانى ، لأنها دكتاتورية اعـتباطية ، لا تملك منطقياً أى حق فى الوجود . وكـان يرى أن افتراضـات العلوم الطبيعـية عن العالم إنما هى نتائج التجارب العلمية - فـهى إذن افتراضات مؤقتة تحكمها درجة التقدم العلمى .

لذلك دعت الباتافيريقية إلى افتراض أن كل ظاهرة طبيعية تمثل قانوناً قائماً بذاته دون أى تعميم - أى أن الباتافيزيقية هى : « علم الخاص . . أو علم القوانين التى تحكم الاستثناء لا القاعدة» (دورية **إفرجرين** - العدد الباتافيـزيقيون ١٣ ، «تـعريف الباتا فيـزيقية»).
لقد قال الباتافيزيقيون أن الظواهر الطبيعية والأفكار الميتافيزيقية تتكرر، وبعضها يتكرر بصورة أكثر من وبعضها الآخر. ولكن هذا التكرار لا يعنى أنها ظواهر ثابتة وليست عارضة. لقـد وقعت العلوم الطبيعية فى خطأ جسيم عندما اعتبرت هذا التكرار دليلاً على ثبات الظواهر وأقامت عـليه تعميمات وقوانين عـامة وعلمـية. إن منطقـة الوعى الباتافيزيقية تتخطى العلوم الفـيزيقيـة والميتافيـزيقية، وفيـها تمثل كل ظاهرة وحادثة قـانوناً قائمـاً بذاته. وهذا يعنى أنه لا توجـد قوانين

جماعية ثابتة طبيعية أو أخلاقية أو جمالية - هناك فقط قوانين فردية تحكم الظواهر الفردية .

لقد كانت الباتافيزيقية تمثل مرحلة قصوى من مراحل الفوضى الفلسفية . ولكنها بالرغم من ذلك لم تكن فوضى تسعى إلى التدمير ، بل فوضى تدعو إلى المرح والتسامح وتقول أن لكل فرد الحق فى سلوكه الخاص ، لأن كل فرد ظاهرة منفردة لاتخضع لقانون عام . وتحت لواء الباتافيزيقية كما شرحها دعاتها بعد الحرب العالمية الثانية - تتساوى كل الأشياء، وفى نطاق الأبدية ، أو اللازمن ، يتساوى العلم والجهل ، والجاد والهزلى ، والمنطق والعبث ، حين تنتفى السببية الحقيقية من كل شئ .

ورغم تساوى الأشياء ، فمن الأفضل للفنان أن يتجاهل المنطق . . . « إنك عندما تقص قصة مفهومة فإنك تلقى عبئاً على العقل المتلقى وتفسد الذاكرة . . . ولكنك عندما تقص قصة لا تخضع لقواعد المنطق المألوفة فإنك تعطى العقل والذاكرة فرصة للتفكير الخلاق » .

(الفريد جارى - المسرح الفرنسى منذ تحرير فرنسا - تأليف م بيجييدر - ١٩٥٩) .

والباتافيزيقية ترفض فكرة البحث عن الحقيقة إذ أن الحقيقة ما هى إلا فكرة عامة ، أو مجرد تعميم ، وتفضل عليها ما أسماه **جارى** « برحلة عبث واستكشاف ومغامرة فى خضم الأبدية الذى نحيا فيه » . وهى فلسفة ترى بأنه إذا كانت هناك ثمة حقيقة يمكن

الوصول إليها فالطريق الوحيد لها هو من خلال المتناقضات ، وهى فلسفة ترفض كل القيم المتوارثة ، ولكنها لا تدعو للثورة ، ولا تدعو أيضاً للاستسلام ، وهى فلسفة لا تنادى بقيم أخلاقية محددة ، لكنها أيضاً لا تدعو للانحلال ، وهى لا تهدف إلى إصلاح سياسى من أى نوع ، ولكنها أيضاً لا تحبذ الحفاظ على النظم السياسية السائدة . وهى قبل كل شى فلسفة لا تَعِدُ تابعيها بالسعادة ، ولكنها لا تعدهم أيضا بالشقاء .

إن الباتافيزيقية تجسد من خلال عبثيتها المطلقة - أى إنتفاء أى إيمان أو عقيدة أو قيمة منها - تجسد فلسفة العبث أو عبثية الوجود:

« ليس للباتافيزيقية أية علاقة بالفكاهة بمعناها التقليدى أو بالجنون كما يُعّرفه علم النفس . إن الحياة لا معنى لها .. ومن المضحك أن نأخذها مأخذ الجد ، ولا يجب أن نأخذ مأخذ الجد سوى كل ما هو فكاهى ولا معقول » (دورية **إفرجرين** - ١٣٠٥ - « تعريف الباتافيزيقية ») .

تأثير الباتافيزيقية على يونسكو ومسرح العبث :

لقد كان للباتافيزيقية تأثير كبير على ما يُعرف بمسرح العبث . فالقارئ لأعمال **يونسكو وبيكيت وأداموف** وغيرهم يدرك أن كل مسرحياتهم ، رغم تباينها ، تستند إلى فكرة أساسية وهى فكرة اللاجدوى ، وأيضا إلى فكرة الحلول الخيالية . ففى معظم هذه المسرحيات نجد الشخصيات تحاول أن تخرج من موقف لا منطق له

ولا تبرير عن طريق حـل خيالى لا يبـرره منطق . ففى **الكراسى** **ليوجين يونسكو** هناك رسالة هامـة يجب أن تصل أشخاصاً غـير مـوجودين عن طريق خطيـب أبكم ، وفى مسـرحيـة **فى انتظار** **جودو** هناك شخصـان ينتظران ثالثاً يمثل لهما نـوعا ما من الحلول يظل طوال المسـرحيـة مجهـولاً - بل إن المشكلة الأسـاسية أيـضا يكتنفـها الغمـوض . وبالطبع ، لا يصل الشخـص الموعود ، بل يصل **بوزو** بالكرباج .

وربما كـان **يونسكو** باعـتبـاره عـضـواً من أعضـاء الكليـة الباتافيزيقيـة المؤسـسين أكثر كاتب يتضح فى مسرحه تأثير **ألفريد** **جارى** والباتافيزيقية على مسرح العبث .

فعندما ظهرت مسرحية **يونسكو** الأولى **المغنية الصلعاء** أسرع رواد السـريالية بالاحـتـفاء بهـا ، وأعلن **فيليب سـوتو وأندريه** **بريتون وبنجامين بيريه** أن السرياليـة قد قُدّر لها اخيراً أن تـنتصر فى المسرح وأن **يونسكو هو أفضل** ثمرة أدبية للحركة السريالية .

والـدارس لمسرح **يونسكو** لا يمكن أن ينـكر وجود ملامح مـن السرياليـة فى أعمـاله . لقد رفـعت السريالية مـن شأن الأحلام ومنطقـة العقل الباطـن التى يمكن أن يُكتشف فـيها الإنسـان بمعناه الكامل . **ويونسكو** يستخـدم الأحلام بكثرة فى مـسرحه ، وهو أيضاً يتبـع أسلوب المسرح السريالى كما ظهر فى الأعمال المسرحية القليلة التى أثمرتهـا الحـركة السريالية - مثـل مـسـرحيات **روجيه** **فيتراك** و **انتونين أرتو** و **ريبيمون ديسانى** (أنظر فصل السريالية)

- ذلك الأسلوب الذى يحافظ على التفاصيل الواقـعية حتى التافه منهـا بدقة شـديدة مع إدخـال عناصـر لا تمت إلى الواقع بصلة ، وتنتمى أساساً إلى عالم الكوابيس .

ورغم ذلك فـقــد أنكر **يونسكو** صراحـة انتمـاءه للحـركة السرياليـة أو تأثره بها إذ قـال : « لم يحدث أننى انتـميت فى أى وقت إلى هذه المجمـوعة ، ولا انضممت إلى الســرياليين الجدد . وهذا لا ينفى أن أفكارهم أثـارت اهتمـامى » (دوريه **إفرجرين** - ١٦٨٦ - ١٩٥٩/١٢/٢٤) .

لقد بدأ **يونسكو** نشاطه الأدبى بـبـعض القصـائد ذات النبرة السريالية الواضحة ، وكان فى هذا متأثراً بـ **ميترلنك** و **فرانسيس جام** . ولكنه كان دائماً يؤكد بأن تأثير الســريالية عليه كان ينحصر فى أنها كانت مجرد قوة حـررته من التقاليد الأدبية الموروثة ، وأنه بعـد ذلك سلك طريقـاً مخـتلفـاً . لقد كـان اعتـراض **يونسكو** الرئيسى عـلى السريالية يتلـخص فى أنها كحـركة فكرية قـصرت جهودها على « فتح الأبواب أمام طوفان اللاوعى . . طوفان الحب والاحلام ، دون أى مـحاولة لضبط وتنظيم المـادة التى نتجت عن هذا فى أعـمال فنيـة تتمـيز بالوضـوح » (**يونسكو - اكتـشاف المسرح**) .

لقـد بُهــر السرياليون بفكرة الهروب إلى عالم الحقيقة الكاملة الكامنة فى اللاوعى بحيث أعمتهم عن الخطر الكامن منذ الأبد فى

الموقف أو الوضع الإنسانى. وتصور السرياليون أن استكشاف اللاوعى بصورة تلقائية كاملة هو طريق الخلاص ، وكان هذا فى رأى **يونسكو** خطأ كبيراً . فالفنان لابد وأن يحقق توازناً دقيقاً بين التلقائية وبين ما أسماه بالوضوح الفنى حتى يتحقق لتجربته الفنية الاكتمال المؤثر . ولا يجب أن يغرق الفنان فى عالم الرؤى والأحلام التلقائية بل أن ينتظم هذه الأحلام والرؤى فى شكل فنى واضح منظم يعبر عن رؤية الفنان الشاملة للموقف الانسانى - حتى ولو كان موقفاً عبثياً هزلياً .

يقول **يونسكو** « إننى أومن بأن الفنان لابد وأن يمتلك خليطاً من التلقائية والدوافع اللاواعية ، وقدرة على الوصول إلى رؤية واضحة لا تخاف أى شئ يكشف عنه اللاوعى . .

فليسمح الفنان لطوفان اللاوعى بالانطلاق التلقائى ولكن بعد ذلك يأتى دور الفحص والتنظيم والفهم والاختيار لتحقيق العمل الفنى الناجح » (**اكتشاف المسرح**) .

لم تكن السريالية إذن عنصراً أساسياً فى ميراث **يونسكو** الأدبى باعترافه . . لقد رفض فكرياً نبراتها التفاؤلية السهلة ، ورفض فنياً تلقائيتها الهوجاء . وإذا كان **يونسكو** قد أنكر انتماءه للسرياليين فقد أعلن أنه **يفتخر** ويتشرف بانتمائه للباتافيزيقيين ، بل إنه نشر عدداً غير قليل من أعماله للمرة الأولى فى كراسات ودوسيهات الكلية الباتافيزيقية .

لم يتأثر **يونسكو** تأثراً مباشراً يتخذ صورة التقليد **بألفريد جارى** . لقد استوعب **يونسكو** أفكار **جارى** وفلسفته العبثية وروح الكوميديا التى اعتقد **جارى** أنها الوسيلة الوحيدة لتناول الحياة فى عبثيتها المتناهية . لقد رفض **يونسكو** فلسفة الحلول السهلة التى آمن بها السرياليون ، ورفض روح التفاؤل السهل التى تغلغلت فى هذا التيار - ذلك التفاؤل الذى كان يستند إلى الإيمان بأن الحقيقة (وهى صنو الخلاص) تكمن فى استكشاف الفنان لحياته الداخلية اللاوعية ، والتصافى معها فى تلقائية، ونبذ العالم العقلانى التقليدى . إن أعمال **يونسكو** تعكس بوضوح ميله لفلسفة «ما بعد اللاوعى وما بعد الميتافيزيقية » - أى فلسفة الحلول الخيالية أو اللا حلول . لقد كان **يونسكو** يعتقد مثل **جارى** بعبثية محاولة البحث عن الحقيقة ، وغالباً ما كانت مثل تلك المحاولة تؤدى فى مسرحياته - مثل مسرحية **القاتل** - إلى طريق مسدود : وهو الموت . ففى هذه المسرحية يحاول **بيرانجيه** أن يكتشف حقيقة تلك المدينة الفاضلة التى وصلت إلى جميع الحلول لجميع المشاكل ، حتى مشكلة المطر ، والتى لم تبق فيها سوى مشكلة واحدة هى الموت . وينتهى به البحث إلى طريق يعترضه كائن لا يقبل من **بيرانجيه** أية تبريرات فلسفية أو أخلاقية أو قانونية أو اجتماعية أو عقلانية لعدم قتله .

وينتهى الأمــر بمقتل **بيرانجيه** . ويظل لغــز الموت يخـيم على المدينة الفاضلة .

لقد انـتفع **يونسكو** بالكثـيـر من عناصر السـرياليـة ، ولكن الأرضية الفلسـفية لأعماله كـانت تدين بالفضل **لألفريد جارى** و **الباتافيزيقيين** .

مسرح العبث

بين صمويل بيكيت وهارولد بنتر

إرتبط التيار المسرحى الذى أطلق عـليه الناقد البريطانى **مارتن إسلن** إسم **مسرح العبث** (فى كتـابه الشهيـر الذى يحمل نفس العنوان) باسم الـكاتب المسـرحى الأيرلندى **صمويل بيكيت** ، وخاصة مسرحيـته الأولى الشهيرة **فى انتظار جودو** ، التى تُعـد النموذج الأولى لهـذا الضرب من المسرح ، والتى أحدثت ضـجة هائلة فى الأوساط المسـرحية الأوربيـة حين عُرضت لأول مرة فى باريس عـام ١٩٥٣ . وفى هذه المسـرحيـة تبلورت الملامح الفنيـة والفكرية لهـذا النوع المسـرحى الجديد بـصورة حـادة واضحـة ، وكشـفت عن أصولهـا فى الفلسفـة الوجودية والفكر السـيريالى ، وعن رؤيـة عبثـية قـاتمة للوجود الإنسانى تخلو من الجلال المأساوى ، وتتخذ مــن السخرية المريـرة والفكاهة السوداء أسلوباً لها .

لقد أدرك **بيكيت** أن الرؤية العبثية رؤية عدمية تؤدى بالضرورة إلى انتفاء القول والفعل من الحياة ، وكذلك من المسرح - باعتباره تصويراً وتفـسيراً استـعارياً للحيـاة . لذلك يلحظ المتتبع لأعـماله الدرامية - سواء تلك التى كتبهـا للمسرح أو للأذاعة أو السينما أو التليفزيون - أن هذه الأعمال الدرامية تـتقلص فى أحجامها تقلصاً إطرادياً مع مرور الوقت حـتى لاتكاد تشغل سوى بضع صـفحات

قليلة ، بل وأحياناً صفحة واحدة . فمسرحيته المسماه **النفس** مثلاً (١٩٦٩) طولها نصف صفـحة ، ولا تستغـرق عند العرض سوى خمس دقائق فقط ، وتخلو تماماً من الشخـصيات والأفعال البشرية واللغة . وفى هذه المسرحية يرتفع الستـار مع أصوات أنفاس لاهثة تتردد وصرخة إنسـانية ، ليكشف عن مسرح خاوى ، تنتـشر فوقه أكوام من القـمامة . وبعـد خمس ثوانى يبـدأ الستار فى الهـبوط تدريجياً مع صوت أنفـاس متحشرجة تعقبـها صرخة . وعند ذلك ينتهى العـرض . ويقصد **بيكيت** بهذه المسرحيـة أن يقدم استعارة مرئية مكثـفة ، تختزل معنـى الحياة الإنسانية كـما يراها فى صورة مجسّدة .

وفى مسرحية أخرى بعنوان **لست أنا** (١٩٧٢) لا يرى المشاهد على المسـرح سـوى فم ممثلة تُسـلّط عليـه الأضـواء ، وهو يلقى بمونولوج لاهث قصير هو كل المسرحـية ، فكأن الممثلة قد تحولت إلى فم لا يرتبط بجسد حى أو بالوجود . وكان **بيكيت** قد اختزل أجسـاد ممثليه فى مـسرحـية سـابقة (عـام ١٩٦٣) أسـماها فـقط **المسرحية** فـوضع الشخـصيـات (وهم رجل وامرأتان) داخل آنيـة فخـارية كـبيرة لا تـظهر منهـا سوى رؤوسـهم ، ويلقى كل منهم بمونولوجه الخـاص دون أن يوجهه لأحد ، وتتقـاطع المونولوجات لتكشف فى النهاية عن حتمية انعدام التواصل بين البشر .

وتبلغ عـدميـة **بيكيت** الفكريـة أقـصى درجـاتهـا فى تلك المسرحيات التى ينفى فيها اللـغة تماماً ليركز على وحدة الإنسان فى

الوجود فى كون يناصبه العداء ، وعلى عجزة التام عن الفعل . وقد فضلت أن أسوق للقارئ هنا نموذجاً من تلك المسرحيات القصيرة التى تجسد هذه الرؤية العبثية ، وهو أحد نصين نشرهما بيكيت تحت عنوان **بلا كلمات** عام ١٩٥٧ ، فهو نص يبدأ بنفى الكلمة وإنكارها ، وينتهى بانتفاء القدرة على الفعل عند إدراك اللاجدوى .

ويبين هذا النص أن **بيكيت** قد وصل بالتشكك فى قدرة اللغة على إحداث التواصل الإنسانى . وفى فعاليتها كأداة تفكير فى عالم يخلو من المعنى ، إلى نقطة النفى الكامل لوجودها - أى إلى نقطة الصمت المطبق . وهو هنا يوظف شكلاً مسرحياً معروفاً هو « المايم » أو التمثيل الصامت ، توظيفاً جديداً إذ يجعله أداة تعبير بليغة عن كفره باللغة فى إطار عبثية الوجود .

وهذا النص ، على قصره ، يقدم للقارئ بتركيز شديد المحاور الأساسية فى مسرح العبث رؤيةً وأسلوباً فنياً ، وهى المحاور التى نوجزها فيمايلى :

١- الاغتراب التام للإنسان ، ووحدته فى كون يناصبه العداء، ويبدو وكأنه ينكر عليه حق الوجود . فمسرح العبث يقدم لنا شخصيات منبوذة ، لامنتمية ، لفظتها الحياة . وهو يضع هذه الشخصيات فى صراع دائم يخلو من المنطق والتبرير مع محيط وجودها المادى والمعنوى ينتهى باستسلامها فى قنوط .

٢- فكرة اللاجدوى التى تسيطر على كل شئ . فمسرح العبث يرى أن كل الأفعال والأنشطة التى يقوم بها الإنسان ، وكل الخبرات التى يكتسبها ، مهما بالغ فى فلسفة قيمتها ونفعها، ما هى فى حقيقة الأمر سوى « العاب » تسلية لا طائل من ورائها، ولا تغير من شئ ، وفائدتها الوحيدة هى قطع الوقت ، وقتل الملل ، فى انتظار خلاص لا يجئ ، فى الرقعة الجدباء بين ميلاد لا اختيار للإنسان فيه ، وموت كثيرًا ما يستعصى عليه ، وإذا جاء لا يمثل خلاصاً أو مولداً جديداً بل يمثل العدم الكامل .

٣- ترتبط فكرة لا جدوى الفعل بفكرة لا جدوى اللغة فى مسرح العبث . إن اللغة فى مسرح العبث ، وفى مسرحيات **بيكيت** خاصة ، تصبح مجرد أصوات جوفاء الهدف الوحيد منها هو درء غائلة الصمت الموحش الذى يلف الإنسان فى وحدته الوجودية . فالإنسان فى مسرح العبث يتكلم لا لشئ سوى أن يخدع نفسه بوهم التواصل ، وليهرب من الإحساس المرعب بالخواء الكامل من حوله .

٤- محاكاة أسلوب السينما الصامتة - وخاصة أفلام **تشارلى تشابلن** و **بستر كيتون** - فى ترجمة الرؤية العبثية إلى تشكيل مسرحى . إن البطل فى هذه الأفلام يظهر دائما شريداً مغترباً ، وعرضةً لعدوان المجتمع والحياة ، بل والقوى الطبيعية . ففى أحد أفلام **بستر كيتون** - على سبيل المثال - تهب عاصفة هوجاء تقتلع الأشجار والبيوت ، ووسط هذه العاصفة الرعناء يجرى البطل

مـحاولاً الهـرب من قسـوة العاصـفة وأيضًا من عـدد من البشـر يطاردونه للنيل منه . ولم يكتف القدر بابـتلائه بهؤلاء المطاردين ، بل جعل الأشجار الطائرة فى مهب الريح تغير مسارها هى الأخرى لتطارده عن عمد لتُلحق به الأذى .

لقد اقتبس مسرح العبث من هذه الأفلام الصامتة فكرة البطل الشريد ، واقتبس أيضًا أسلوبها المميـز فى تقديم موقف تختلط فيه عناصر الـبـؤس الشديد بالقـسوة البالغـة وبالكوميـديا الفاقـعة ، ويحـمل فى طياتـه تعليقًا حزينًا علـى وضـع الإنسان فى الكون .

وفى أيدى كـتـاب العـبث تكثف العنصـر المأسـاوى فى هذا الشكل الفنى حيث أصبح الأسلوب الفنى المميـز لمسرح العبث هو ما يمكن أن نسميه بالهزلية الفلسفية السوداء .

٥- الاعتـماد على الاستعـارة المسرحيـة المجسدة : فمـسرح العبث مسـرح شعرى ، يقدم رؤية كليّة لارؤية تحليـلية ، ويتوسل بالصورة الفنية إلى الـتعبير عن رؤيته . ولكـنه يختلف عن المسرح الشعـرى المعهود فى كـفره باللغـة المنطوقة ويستـعيض عنهـا بلغة التجسيد المسرحى. إن الاستعارة الشـعرية فى مسرح العبث تتجسد فى تشكيل فنى محسوس على خشبـة المسرح، بل إن كل مسرحية جيدة فى هذا التيار يمكن وصفها بأنها استعارة شعرية مرئية مجسدة. لهذا نجد أن المنظر فى مسرح العـبث، وكل تغيير يطرأ عليه، وكل جزئية تضاف إليه ، لا يقل أهمية عن حركات الممثلين أو الكلمات المنطوقة . لقـد استبدل مـسرح العبث بشعـر الكلمة شعر الحـركة

والتجسيد المسرحى فى الديكور بحيث جعل الديكور المسرحى أداة تعبير درامية - شعرية أساسية، وجزءًا لا يتجزأ من الحدث المسرحى. ولم يعد الديكور فى هذا النوع من المسرح مجرد حلية ، أو إطاراً يحتوى الحدث واقعيًا أو رمزيًا ، بل لم يعد انعكاساً تشكيلياً للحدث يؤدى وظيفة التكثيف للمعنى، بل أصبح الديكور عنصراً إيجابياً فى الصراع الدرامى لا يكتمل معنى الحدث دونه كما سيتضح للقارئ من النص الذى نقدمه هنا .

المسرحية

- المنظر صحراء . إضاءة باهرة .
- يُلقى برجل من الجناح الأيمن للمسرح إلى منتصف الخشبة حيث يقع متكوراً . يهب الرجل واقفاً لتوه . ينفض الغبار عن ملابسه . يستدير جانباً ، ويستغرق فى التفكير .
- ينبعث صفير من الجناح الأيمن .
- ينتبه الرجل ويفكر . يتجه إلى الجناح الأيمن .
- يُقذف به فوراً مرة أخرى إلى منتصف المسرح حيث يقع . يهب واقفاً فى الحال . ينفض الغبار عن ملابسه . يستدير جانبا ، ويستغرق فى التفكير .
- ينبعث صفير من الجناح الأيسر .
- ينتبه الرجل ويفكر . يتجه إلى الجناح الأيسر .
- يُقذف به فى الحال مرة أخرى إلى منتصف المسرح حيث يقع

- يهب واقفا فى الحال . يستدير جانباً . ويستغرق فى التفكير .
- ينبعث صفير من الجناح الأيسر .
- ينتبه الرجل ويفكر . يشرع فى الاتجاه إلى الجناح الأيسر . يتردد . يغير رأيه . يتوقف . يستدير جانباً . ويستغرق فى النفكير .
- تهبط شجرة من أعلى المسرح وتستقر على الأرض . بالشجرة فرع واحد على ارتفاع ثلاثة ياردات من الأرض . أعلى الشجرة يوجد عدد من جريد النخل يُلقى بدائرة من الظل أسفلها .
- الرجل مستغرق فى التفكير ولا يلمحها .
- ينتبه الرجل ويستدير . يلمح الشجرة - يتجه إليها ويجلس فى ظلها - يتأمل كفيه .

***

- يهبط من أعلى المسرح مقص كبير ويستقر أمام الشجرة على ارتفاع ياردة واحدة من الأرض .
- الرجل مستغرق فى تأمل كفيه ولا يلمحه .
- ينبعث صفير من أعلى .
- ينتبه الرجل. يلمح المقص. يلتقطه ويشرع فى تقليم أظافره .
- تطوى الشجرة جريد النخل أعلاها كما تُطوى المظلة . وتختفى

دائرة الظل .

- يسقط المقص من يد الرجل ويستغرق فى التفكير .

***

- يهبط من أعلى المسرح إبريق صغير عليه لافتة كبيرة تحمل كلمة « ماء » فى حروف بارزة . يستقر الإبريق على ارتفاع ثلاث ياردات عن الأرض .

- ينبعث صفير من أعلى .

- ينتبه الرجل . يلمح إبريق الماء . يفكر . ينهض من جلسته ويتجه إلى حيث الإبريق ويقف أسفله . يحاول جاهداً أن يمسك به ، ولكن دون جدوى . ييأس من المحاولة - يتوقف - يستدير جانبا . ويستغرق فى التفكير ..

***

- يهبط من أعلى المسرح مكعب كبير ويستقر على الأرض .

- الرجل مستغرق فى التفكير ولا يراه .

- ينبعث صفير من أعلى .

- يستدير الرجل ويلحظ المكعب . يتأمل إبريق الماء . يفكر . يذهب إلى المكعب . يرفعه ، ويحمله ويضعه أسفل إبريق الماء . يختبر ثبات المكعب . يعتليه . يحاول جاهداً الإمساك بالإبريق ولكن دون جدوى . يهبط ويحمل المكعب إلى مكانة

الأول . يستدير جانبًا ، ويستغرق فى التفكير .

- يهبط من أعلى المسرح مكعب أصغر من الأول ويستقر على الأرض .
- الرجل مستغرق فى التفكير ولا يراه .
- ينبعث صفير من أعلى .
- يستدير الرجل ، ويلمح المكعب الثانى . يتأمله ثم يتأمل الإبريق .
- يتجه إلى المكعب الثانى ويرفعه إلى حيث إبريق الماء . يضعه أسفل الإبريق . يختبر ثباته . ثم يعتليه . يحاول جاهدًا الإمساك بالإبريق ولكن دون جدوى .
- يهم برفع المكعب الثانى والعودة به إلى مكانه الأصلى. يتردد. يغير رأيه . يتجه إلى المكعب ويرفعه . يحمله إلى حيث المكعب الثانى ويضعه فوقه . يختبر ثباتهما ثم يعتليهما. ينهار المكعبان ويقع الرجل الذى يهب واقفًا فى الحال وينفض الغبار عن ملابسه . ويستغرق فى التفكير .
- يرفع الرجل المكعب الصغير ويضعه فوق المكعب الكبير . يختبر ثباتهما ثم يتعليهما . وفى اللحظة التى يوشك فيها أن يلمس إبريق الماء يرتفع الإبريق إلى أعلى بحيث يصبح بعيدًا عن متناوله يديه .

- يهبط الرجل . يفكر . يعود بالمكعبين إلى حيث كانا فى بادئ الأمر واحداً تلو الآخر . يستدير جانبا . ويستغرق فى التفكير .
- يهبط من أعلى المسرح مكعب ثالث أصغر من الثانى ويستقر على الأرض .
- الرجل مستغرق فى التفكير ولا يراه .
- ينبعث صفير من أعلى .
- ينتبه الرجل ويستدير . يلمح المكعب الثالث . يتأمله . يفكر . ولكنه يستدير جانباً مرة أخرى ويستغرق فى التفكير .
- يرتفع المكعب الثالث ، ويختفى أعلى المسرح .

***

- يهبط من أعلى المسرح بجوار إبريق الماء حبل به عقد لتسهيل التسلق .
- الرجل مستغرق فى التفكير ولا يراه .
- ينبعث صفير من أعلى .
- ينتبه الرجل ويرى الحبل . يفكر . يذهب إلى الحبل ويتسلقه . وإذ يوشك على الإمساك بإبريق الماء يتدلى الحبل إلى أسفل بحيث يعود بالرجل مرة أخرى إلى الأرض .
- يفكر الرجل . ينظر حوله باحثاً عن المقص الكبير .

يــراه . يلتقـطه ويعـود به إلى الحبل ويشرع فى قصه ليقلل من طوله .

- بينمــا هو ممسك بالحـبل يرتفع الحبل إلــى أعلى فجـأة حامـلاً الرجل معه . يتدلى الرجل من الحبل برهة حتى ينجح فى قصه ويسقط على الأرض ، ويسقط المقص من يده . ينهض الرجل واقفاً . وينفض الغبار عن ملابسه ، ثم يستغرق فى التفكير .

- يرتفع الحبل إلى أعلى سريعا ويختفى .

***

- يحاول الرجل أن يصنع مــن الجزء المتبقـى لديه من الحبل دائرة يصطاد بها إبريق المياه عن بعد .

- بمجـرد أن يشــرع فى محـاولة اصطيـاد الإبريق بالحـبل يرتفع الإبريق إلى أعلى ويختفى فى الحال .

- يستدير الرجل جانباً ويستغُرق فى التفكير .

***

- يلتقط الرجل الحبل ويتجه إلى الشجرة . يتأمل فرعها .

- يستدير ويتأمل المكعبين ، ثم ينظر مرة أخرى إلى الفرع . يضع الحبل على الأرض ويذهب فيحمـل المكعب الصغير . يتردد . يغير رأيه . يضع المكعب الكـبير على الأرض ثم يضع المكعب الأصغر فوقه . يختبر ثباتهما ، ثم ينحنى ليلتقط الحبل .

- فى هذه اللحظة تطوى الشجرة فرعها بحيث يلتصق بجذعها .
- ينهض الرجل وبيده الحبل . يرى ما حدث للفرع .
- يسقط الحبل من يده . ويستغرق فى التفكير .
- يحمل المكعبين إلى حيث كانا واحداً تلو الآخر . يعود ويتلقط الحبل . يذهب به حيث وضع المكعبين . يطويه بدقة ، ويضعه على المكعب الصغير .
- يستدير جانباً ويفكر .

***

- ينبعث صفير من الجناح الأيمن .
- يفكر الرجل . يذهب إلى الجناح الأيمن .
- يُقذف به فى التو إلى منتـصف المسرح حيث يقع . ينهض فى الحال. وينفض الغبار عن ملابسه ، ويستدير جانباً، ويفكر .
- ينبعث صفير من الجناح الأيسر .
- يظل الرجل ساكنا يفكر .

***

- يتـأمل الرجل كفـيه . ينظر حـوله باحثـاً عن المقص . يراه . يتجه إليه ويلتقطه . يشرع فى تقليم أظافره . يتوقف . يفكر. يتحـسس شفرة المقص بأصـابعه. يذهب إلى المكعب الصغـير ويضع المقص فوقه . يستدير جانبًا . يفـتح ياقة قيمصه ويحرر

رقبته ويتحسسها .

- يرتفع المكعب الصغير إلى أعلى المسرح حاملاً معه الحبل والمقص ويختفى .
- يستدير الرجل ليلتقط المقص . يرى ما حدث .
- يستدير جانباً ويستغرق فى التفكير .
- يتجه الرجل إلى المكعب الكبير ويجلس فوقه .
- يرتفع المكعب إلى أعلى ملقيًا بالرجل على الأرض ويختفى أعلى المسرح .
- يظل الرجل راقدًا على جنبه على الأرض حيث وقع ، وجهه للمتفرج ويشخص ببصره .

***

- يهبط إبريق الماء مرة أخرى من أعلى المسرح ويستقر على بعد بضعة أقدام من حيث يرقد الرجل .
- يظل الرجل ساكناً .
- ينبعث صفير من أعلى .
- لا يحرك الرجل ساكناً .
- يتدلى إبريق الماء أكثر ويتراقص حول وجهه .
- لا يحرك الرجل ساكناً .

- يرتفع الإبريق ويختفى أعلى المسرح .
- يعود فرع الشـجرة إلى وضعه الأفقى الطبيـعى الأول ، وتتفتح قمة الشجرة ، وتعود دائرة الظل .
- ينبعث صفير من أعلى .
- لا يحرك الرجل ساكناً .
- ترتفع الشجرة وتختفى أعلى المسرح .
- يتأمل الرجل كفيه .

* ســــتار *

***

يرى العديد مـن النقاد أن المؤلف المسرحـى الإنجليزى **هارولد بنتر** هو الامـتداد الطبـيعى لمسـرح **بيكيت** الذى يكشف صـعـوبة التواصل بـين البشر ، بل واسـتحـالته ، وعجـز اللغة عن عـبور الحواجـز بينهم ، ويصورها كوسـيلة للاخفاء والتـمويه ، أو لدرء غـائلة الصـمت الموحش الذى يحـيط بالإنسـان ، تعطيـه وهمـاً بالتواصل بينما هى فى الحقيقة تعـمق من إحساسه بالعزلة والوحشة ، لذلك أصـبـحـت فـتـرات الصـمت التى تتـــخلل الحـوار بين الشخصيات فى أعمال **بنتر** الدرامية ملمحـاً مميزاً لمسرحه ، وتحول الحوار الدرامى فى هذه الأعـمال إلى عـملية تعرية للإكـليشيـهات اللغـوية التـى يتكون منهـا الحـديث اليـومـى بين البـشـر - تلك

الإكليشيهات التى سخر منها **يوجين يونسكو** بعنف وضراوة فى هزليته العبثية المسماة **المغنية الصلعاء** .

لكن **هارولد بنتر** رغم تأثره بمسرح **بيكيت** ، واعترافه الصريح بهذا التأثير ، يختلف عن **بيكيت فى** ملمح هام : لقد رفض **بنتر** - على العكس من **بيكيت** - أن يتخلى عن الإطار الواقعى الخارجى فى أعماله ، ونسج دراماته من التناقض الحاد بين عقلانية الواقع الظاهرية وبين جوهره العبثى . بل إن **بنتر فى** مرحلته الأخيرة قد حول مسرح العبث إلى أداة للاحتجاج السياسى الهادئ ، وذلك حين تناول اللغة ليس فقط باعتبارها أداة عقيمة توهم الإنسان بالتواصل مع الآخر ، بل باعتبارها أيضاً أداة قهر وتسلط . وتجلى هذا التوظيف السياسى للرؤية العبثية للغة فى أبلغ صورة فى واحدة من أخر مسرحياته - وهى مسرحية بالغة القصر ، لا يستغرق عرضها سوى ٢٠ دقيقة ، وأسمها **لغة الجبل** (١٩٨٩) .

وقد فضلت أن أورد للقارئ هذا النص القصير هنا كنموذج للتطور السياسى الذى طرأ على مسرح العبث .

ولعل أول ما يلفت انتباه المتتبع لمسرح **بنتر** فى هذا النص هو وجهه السياسى الصريح الهادف أولاً ، ثم سياسة الاختزال الصارم ، والتكثيف الشديد والتقطير الدقيق التى انتهجها المؤلف - تلك السياسة التى جعلت العرض يستغرق أقل من النصف ساعة على خشبة المسرح . ورغم أن النقد السياسى قد شكل دائمًا بعداً هاماً

مضمـراً فى مسرح بنتر منذ البـداية - أى منذ أن كتب مـسرحـية **حفلة عيد الميلاد** عام ١٩٥٧ وحـتى الآن - إلا أنه لم يطف إلى السطح بهذا الوضوح وهذه الصراحة حتى الآن ، وربما كان السبب فى هذا انغماس **بنتر** فى نشاط منظمة العـفو الدولية فى السنوات الأخيرة . ورغم أن مـسرحيات **بنتر** قد تميزت بالاقتـصاد والكثافة والقصـر منذ البداية - شـأنه فى ذلك شأن الغـالبيـة العظمى من مؤلفى المسرح الطليعى الغربى المعـاصر - إلا أنه بالغ فى الاقتصاد المسرحى هذه المرة فجاء القصر الشـديد للعرض ملفتًا للنظر ومثيراً للتعليقات .

وتنطلق المسرحـية ، كما يدل عنوانهـا ، من اللغة - لا كموصل أو وسيلة تعبير وتواصل فقط، بل باعتبارها موضوعًا شائكًا وساحـة صراع ضارى . فاللغـة هنا تتبدى فى مـفهوم حـديث كسـلاح تسلط وهيمـنة وحقل صـراع أيديولوجى . وغنى عن القـول أن هذا المفهـوم يتسق مع ، بل وينبـثق من النظرات الحديثة فى طبـيعة الثقافة واللغة كـما طرحها المفكر الفـرنسى ميـشيل فـوكوه والناقـد الروسى ميـخائيل باخـتين وغيرهم .

لقد قال الناقـد الايرلندى الثورى **تيرى إيجلتون** - مستلهما آراء الناقـد الإيطالى الماركـسى **أنطونيو جرامشى** - فى مـعرض الحـديث عن طبيـعـة الثورة وضـرورة انتـقال عـمليـة التنوير من المواصفات المـادية إلى المواصفات اللغوية ، أى إلى طرائق التـفكير والتعبير وتفسير العالم - قال **إيجلتون** :

« إن الثـورة التى تنجح فى تبـديل انماط الإنتـاج والعلاقـات الإجتماعية وتفشل فى تغـيير أنماط الحديث والأساليب الفنية ، بل وأسلوب العمارة ، تظل فى أساسها ثورة ناقصة لم تكتمل » .

لقد جعل بنتر من حرمـان أهل الجبل من الحديث بلغـتهم ، وإجبارهم على تبنى لغة أخرى ، رمزاً جامعاً شاملاً للقهر فى شتى تجلياته ، فحول اللغة إلى حقل صراع سياسى ، والصوت البشرى إلى طاقة ثورية إذا اختار التحدى .

ورغم أن بعض النقاد قـد عابوا على النص قصـره الشديد ، إلا أن السياسة الفنية التى انتهجـها المؤلف - سياسة اختزال الجملة المسرحية إلى أقصى درجة وتكثيفـها شعريًا - هذه السياسة أنتجت نصا موحـياً ، عميق التأثيـر، تمثل كل لوحة فيه رؤية كـابوسية لا تخلو من جمال سيريالى، تسـتنهض من أعماق ذاكرة التاريخ رؤى مماثلة ، تتردد فى دهاليز الوعى كرجع الصدى، كـما تتردد صرخة الفتاة فى الظلام فى اللوحة الثالثة المعنونة « صوت فى الظلام » .

مسرحية لغة الجبل

الشخصيات :

فتاة

امرأة عجوز

جاويش

حارس أول

سجين

رجل يرتدى غطاء رأس يكاد يخفى وجهه

حارس ثانى .

- ا -

سور السجن

طابور من النسـوة . إمرأة عجـوز تحتضن إحـدى يديها بالأخـرى وتهدهدها ، بينمـا ترقـد سلتهـا على الأرض عند قدميها . تقف بجوارها فتاة تلف ذراعها حول كتفيها .

يدخل الجاويش يتبعه الضابط .

الجاويش : (**مشيرا إلى الفتاة**) . الاسم ؟

الفتاة : أعطينا أسماءنا من قبل .

الجاويش : الاسم ؟

الفتاة : أعطينا أسماءنا من قبل .

الجاويش : الاسم ؟

الضابط : (**إلى الجاويش**) كـفى ! (**إلى الفتاة**) هل لديك شكوى ؟

الفتاة : عضوها .

الضابط : من ؟

(وقفة)

من ؟ عضوا من ؟

الفتـاة : هذه المرأة .. نهشـوا يدها . أنظر .. عضـوا يدها ..
أترى الدم ؟

الجاويش : ما اسمك ؟

الضابط : اخرس .

(يتجه إلى المرأة العجوز)

ماذا حدث ليدك ؟ هل عض أحد يدك ؟

(ترفع المرأة يدها على مهل. يتأملها الضابط عن قرب)

من فعل ذلك ؟ من عضك ؟

الفتاة : أحد كلابكم .

الضابط : أيهم ؟

(وقفه)

أيهم ؟

(وقفه)

أيها الجاويش .

(يتقدم الجاويش إليه)

الجاويش : أفندم .

الضـابط : انظر إلى يد هذه المرأة . اعتـقد أن الإبهـام يوشك أن ينفصل عن الكف . **(إلى المرأة)** من فعل ذلك ؟

(المرأة تحملق فيه دون رد)

الفتاة : كلب ضخم .

الضابط : ما اسمه ؟

(وقفه)

الضابط : ما اسمه ؟

(وقفه)

ما اسمه ؟

(وقفه)

كل كلابنا لهـم أسماء نناديهم بهـا . يعطيهم أباؤهم أسـماء فتصـبح أسماءهم . وقبل العض على كل كلب أن يذكـر اسمه . هذا إجراء رسمى . . عليهم أن يذكـروا أسماءهم قبل العض . ما اسمـه ؟ لو أنك قلت لى أن واحدًا من كـلابنا قد عض هذه المرأة دون أن يذكر اسـمه أولاً فـسوف أعـدمه رميًا بالـرصاص . . فى الحال .

(صمت)

والآن . انتباه . صمت وانتباه . أيها الجاويش .

الجاويش : أفندم .

الضابط : استقبل الشكاوى .

الجاويش : الشكاوى ؟ هل لدى أحد شكاوى ؟

الفتاة : قالوا لنا أن نأتى إلى هنا فى التاسعة صباحاً .

الجاويش : فعلا . صحيح . التاسعة صباحًا . بالضبط وما الشكوى ؟

الفتاة : جئنا فى التاسعة صباحًا ، والساعة الآن الخامسة . انتظرنا على أقدامنا ثمانى ساعات كاملة فى الجليد . وأطلق رجالك علينا الكلاب ليرعبونا ، وعض أحدهم هذه المرأة .

الضابط : وما اسم هذا الكلب .

(ترمقه الفتاة برهة)

الفتاة : لا أعرف اسمه .

الجاويش : بعد إذنك يا سيدى ؟

الضابط : تفضل .

الجاويش : إن أزواجكم وأبناءكم وأباءكم . . هؤلاء الرجال الذين تنتظرون رؤيتهم ليسوا سوى فضلات وقاذورات . إنهم أعداء الدولة . حثالة .

الضابط : والآن . . انصتوا إلى جيداً . يا أهل الجبل أتسمعوننى ؟ لقد ماتت لغتكم . مُنع استخدامها وتداولها . ليس من المسموح

الحديث بلغة الجبل هنا . إياكم والحديث بها مع رجالكم . ممنوع . مفهوم ؟ استخدامها ممنوع . . جريمة يعاقب عليها القانون . عليكم باستخدام لغة العاصمة . إنها اللغة الوحيدة المسموح بها هنا . والويل لكم إذا تكلمتم بلغة الجبل هنا . ستتعرضون لأشد العقاب . هذا مرسوم عسكرى . إنه القانون . لغتكم ممنوعة . ماتت .

استخدامها ممنوع . . لم يعد لها وجود . هل هناك أسئلة ؟

الفتاة : أنا لا أتحدث لغة الجبل .

(صمت . الضابط والجاويش يدوران حولها بتمهل . يضع الجاويش يده على مؤخرتها)

الجاويش : بأى لغة تتحدثين إذن ؟ بأى لغة تتحدث أردافك ؟

الضابط : أيها الجاويش . إحذر . هؤلاء النسوة لسن مذنبات . . تذكّر هذا .

الجاويش : أتعنى يا سيدى أنهن بلا خطيئة ؟

الضابط : لا . . لا . . بالطبع ليس هذا ما أعنيه .

الجاويش : هذه الأنثى تتفجر بالخطيئة . . تتواثب بها .

الضابط : انها لا تتكلم لغة الجبل .

(تبتعد الفتاة عن الجاويش وتستدير لتواجه الرجلين)

الفتاة : إسمى سارة جونسون وقد حضرت لزيارة زوجى . هذا

حقى . أين هو ؟

الضابط : أرينى أوراقك .

(تناوله ورقة . يفحصها ويستدير إلى الجاويش)

أنه ليس من أهل الجبل . . لا ينتمى إلى هذه المجموعة .

الجاويش : ولا هى . أظنها من معشر المثقفين أولاد الكلب .

الضابط : لكنك قلت إن أردافها تهتز .

الجاويش : أكثر الأرداف اهتزازًا هى الأرداف المثقفة .

(ظلام)

-٣-

حجرة الزوار

(يجلس أحد السجناء، وتجلس أمامه المرأة العجوز ، وإلى جوارها المقطف ، ويقف خلفها أحد الحراس .

السجين والمرأة يتحدثان بلهجة ريفية واضحة) .

(صمت)

المرأة : أحضرت معى خبزاً .

(يلكزها الحارس بعصاه)

الحارس : ممنوع . هذه اللغة ممنوعة .

(تنظر إليه المرأة فليكزها مرة أخرى)

ممنوع . **(إلى السجين)** إخبرها أن عليها أن تتحدث بلغة العاصمة .

السجين : انها لا تعرفها .

(صمت)

لا تعرفها .

(صمت)

المرأة : أحضرت أيضا تفاحاً .

(يلكزها الحارس بعصاه صائحًا)

الحارس : ممنوع . قلنا ممنوع ممنوع . يا إله السموات ! ألا تفهم المرأة ما أقول ؟!

السجين : لا .

الحارس : حقا ؟!

(منحنيًا فوقها)

ألا تفهمين كلامي ؟

(ترفع إليه عينيها وتحملق فيه)

السجين : أنها عجوز . لا تفهم .

الحارس : لست مسئولاً عن هذا .

(يضحك)

لست مسئولاً .. أتسمع ؟ ودعني أخبرك بشئ آخر . لدى زوجة وثلاثة أطفال . أما أنتم فلستم سوى كومة من القاذورات .

(صمت)

السجين : لدى زوجة وثلاثة أطفال .

الحارس : لديك ماذا ؟

(صمت)

لديك ماذا ؟

(صمت)

ماذا قلت ؟ لديك ماذا ؟

(صمت)

ماذا لديك ؟

(يتناول سماعة التليفون ويدير القرص مرة واحدة)

سيدى الجاويش ؟ أنا فى الحجرة الزرقاء .. أجل .. رأيت أن من واجبى أن أبلغك أن لدينا هنا مهرج .

(تخفت الإضاءة إلى النصف ويجمد المنظر بينما يدور الشريط الصوتى التالى) :

صوت المرأة العجوز : طفلك الرضيع ينتظرك .

صوت السجين : عض الكلاب يدك .

صوت المرأة العجوز : كل الناس فى انتظارك .. كلهم .

صوت السجين : عض الكلاب يد أمى .

صوت المرأة العجوز : سنستقبلك استقبالاً رائعًا حين تعود . الكل فى انتظارك . . كلهم ينتظرون عودتك . كلهم يشتاقون لرؤيتك.

(تعلو الإضاءة مرة أخرى . يدخل الجاويش)

الجاويش : أين هذا المهرج ؟

(اظلام)

-٣-

صوت فى الظلام

صوت الجاويش : من هذه المرأة ؟ ما الذى أتى بهذه المصيبة إلى هنا ؟ من سمح لتلك الداعرة بالمرور هذا الباب ؟

صوت الحارس الثانى : إنها زوجته .

(إضاءة تكشف دهليزاً به رجل يرتدى غطاء رأس يكاد يخفى وجهه تمامًا ، ويستند على ذراعى الجاويش والحارس . تقف الفتاة على مبعدة منهم تحملق فيهم)

الجاويش : ما هذا ؟! أنحن فى حفل استقبال يا أولاد الكلب ؟ أين الشامبانيا إذن ؟ لماذا لا تحضروا الشامبانيا للسيدة المبجلة يا أولاد الكلاب ؟!

(يذهب إلى الفتاة)

أهلا يا سيدتى . عفوا . خطأ إدارى . آسف . لم يكن ينبغى أن يدخلوك من هذا الباب . لا أكـاد أصدق ! سيـدفع من فعل هذا ثمنًا غاليًا . على أى حال . هـل من خدمة أقدمهـا لك يا سيدتى العزيزة - كما كانوا يقولون فى الأفلام ؟

(تخفت الإضاءة إلى النصف ويجـمد المنظر بينما يدور الشريط الصوتى التالى) :

صوت الرجل المُغطى الرأس : أتأملك فى نومك ، فتفتحين عينيك وتنظرين إلى وتبتسمين .

صوت الفتاة : فتبتسم . أفتح عينى وأراك فأبتسم .

صوت الرجل : نركب قارباً على البحيرة .

صوت الفتاة : فى الربيع .

صوت الرجل : أضمك إلى صدرى فتشعرين بالدفء .

صوت الفتاة : أفتح عينى وأراك فأبتسم .

(تعلو الإضــاءة . يسقط الرجل على الأرض وتصــرخ الفتاة) .

الفتاة : تشارلى !

(يفرقع الجـاويش أصابعه . يسحب الحـارس الجثة إلى الخارج)

الجاويش : أجـل . . لم يكن ينبغى أن تدخلى من هذا الـباب . لابد أنها غلطة الكمبـيوتر فهو مصاب بفـتق مضاعف . لكن . . إسمعى . . إذا كنت تبغين أية معلومات عن أى جانب من جوانب

الحياة هنا .. هناك رجـل يتردد على المكتب كل ثلاثاء بانتظام ..
إلا إذا أمطرت . أنه يُلم بهـذا الموضوع إلمامـاً تاماً فهـو موضـوعه
المختار . اتصلى به وسوف يفى بـكل طلباتك . إسمه دوكس ..
جوزيف دوكس .

الفتاة : وهل يضـاجعنى هذا الـ «دوكس» ؟ وإذا فعل هل كل شئ
على ما يرام ؟

الجاويش : طبعا . بكل تأكيد .

الفتاة : أشكرك .

(اظلام)

-٤-

حجرة الزوار

الحارس والمرأة العجوز والسجين

(صمت)

(تجلس المرأة ساكنة بينما ينتفض السجين وقد تخضب وجـهه بالدمـاء . أمـا الحارس فـينظر من النافـذة . يستدير الحارس إليهما) .

الحارس : آه .. نسيت أن أخبركما أن القوانين قد تغيرت . يمكنها
أن تتكلم الآن .. يمكنها أن تتـحدث بلغتهـا حتى يصدر
إشعار آخر .

(وقفة)

السجين : أماه . . يمكنك ان تتكلمى الآن .

(وقفة)

أمـــاه . . إننـى أتحـــدث إليك . ألا تـرين ؟ يمكنـك الكلام . .
تستطيعين الحديث إلى بلغتنا .

(تظل صامتة)

تستطيعين الحديث .

(وقفة)

أماه !! هل تسمعيننى ؟ . . أننى أكلمك بلغتنا !

(وقفة)

هل تسمعيننى ؟

(وقفة)

؟؟؟؟ .

(وقفة)

هل تسمعيننى ؟ هل تسمعين ؟!

(لا تستجيب)

أماه !

(لا تستجيب وتجلس ساكنة)

(يشتد ارتعاد السجين وانتـفاضه ، ويهوى من مقعده

إلى الأرض على ركبتيه ، يزداد انتفاضه عنفاً ، بينما يشهق محاولاً التنفس - ويدخل الجاويش إلى الحجرة . يتأمل السجين) .

الجاويش للحارس : يا للعجب ! انظر . نبذل قصارى جهدنا لمساعدتهم لكنهم دائماً يضيعون هذا الجهد .

(إظلام)

النهاية

مابعد البعث

« مسرح الاستهزاء والتتفيه »

بين مبدأ إثارة الضحك لإراحة الذهن من التفكير ، أو لصرفه عن التفكير ، ومبدأ إثارة الضحك لإثارة الفكر أو للدعوة إلى التفكير ، تأرجحت الكوميديا على طول تاريخها الطويل .

فالمبدأ الأول تندرج تحته كل العروض الهزلية (الفارس) سواء كانت مسرحيات كاملة أو اسكتشات، والتى تستهدف أولاً وقبل كل شئ دغدغة المتفرج وإثارة أكبر قدر من الضحك ، حتى تنهكه - عضلياً - انهاكاً كاملاً بحيث لا يصبح قادراً على التفكير فى أى

شئ . أى أنها - إذا كانت جيدة - تنهك جسده لتريح عقله ، أو هى - إذا كانت سيئة - تنهك جسده وتنتهك عقله فى الوقت نفسه .

وتحت المبدأ الثانى يندرج كل ما نسميه بالكوميديات الراقية التى ترتفع إلى مستوى الأدب المسرحى ، إذ هى لا تعتمد على المفارقات الصارخة سواء فى الحركات الجسدية أو المواقف السطحية كما تفعل المسرحيات الهزلية ، بل تحاول إثارة الضحك عن طريق تنبيه المتفرج إلى مواطن الشذوذ فى واقعه الاجتماعى والإنسانى ، بحيث يصبح الضحك انتقاداً للواقع وتعليقاً عليه أملاً فى إصلاحه .

ولكن ظهر فى الغرب فى القرن العشرين نوع من الكوميديا يحمل لواءً جديداً يمكن التعبير عنه بالمثل القائل إن « شر البلية ما يضحك » ، ويسمى هذا النوع فى لغة المتأدبين بالكوميديا السوداء .

والكوميديا السوداء قد تتخذ أشكالاً عديدة فى أساليب التعبير المسرحى تتنوع بين الواقعية والفانتازيا ، ولكنها ، مهما اختلفت أشكالها ، ترتكز فى النهاية على افتراض أساسى يميزها عن الكوميديا المعروفة على طول تاريخ المسرح .

فإذا كانت الكوميديا على طول تاريخها احتفالاً بالحياة ، ومحاولة لترسيخ قيمتها واستمراريتها ، وفق مبادئ معروفة ، وفى

أطر قيم ثابتة متفق عليها فى المجتمع بصورة عامة ، فإن الكوميديا السوداء ترتكز أساسًا على إحساس عميق باللا جدوى أو العدمية ، وهو إحساس يتخطى مرحلة الإحساس بالمأساة أو الفجيعة ، ولا يمكن التعبير عنه إلا بالضحك المتشنج الهستيرى .

والضحك فى هذا النوع من الكوميديا يفتقد تماما السخرية الإيجابية التى تميز كوميديا النقد الاجتماعى ، كما يخلو من الإحساس بالسعادة لزوال غمة عابرة ، وهو الذى يميز الضحك الذى تبعثه الكوميديات الرومانسية ، وهو لا يتضمن حتى ذلك الشعور بالتفوق والتميز الذى يحسه المتفرج وهو يضحك من المآزق التى يتعرض لها أبطال الهزليات . فالضحك فى الكوميديا السوداء تنفيس عضلى عن توتر عميق مدمر ينتج من إدراك المتفرج لموقف بالغ القتامة ، لا أمل فى علاجه ، ولا مهرب منه إلا بالضحك أو الموت ، أو الجنون .

وربما كان ظهور هذه الكوميديا الجديدة فى القرن العشرين نتيجة طبيعية لما حاق بالغرب من تمزق وتخلخل فى معتقداته الأساسية ورؤيته للحياة . فإذا كان الضحك فى الكوميديا الأولى ينبع من إدراك مواطن الشذوذ فى واقع معروف ومفهوم ، فمعنى هذا أن الكوميديا تفترض - أساساً - وجود مثل هذا الواقع الصحيح ، واعتراف الجميع بمكوناته وملامحه . ولكن ماذا يحدث لو أن الشذوذ أصبح هو القاعدة ؟ لو تفتت هذا الواقع وضاعت ملامحه ؟ لو أنهارت ركائزه الأساسية من عقائد وتقاليد ومفاهيم ؟

كانت الإجابة فى الغرب هى العبثية ثم ما بعد العبثية ، أو - فى قول آخر - كانت أولاً هى الضحك المتألم الفلسفى من انحسار الإيمان وفوضى القيم وفساد اللغة ، فى استسلام ويأس ، وهذا ما فعله مسـرح العبث على أيدى **يوجين يونسكو وصمويل بيكيت** وغيرهم ، ثم فى مرحلة لاحقة عانق الإنسان قدره اليائس فى تحدٍ ، وجاء الاحتفال بالعدمية بعـد أن تعذر الاحتفال بالحياة . وكانت هذه مرحلة ما بعد العبث فى أمـريكا التى تبلورت بصورة صارخة فى مسرح « الاستهزاء والتتفيه » .

كان المخرج السـينمائى (**جاك سميث**) هو الأب الـروحى لهذا التـيار الذى بدأه فى السينما فى فلـميه **المخلوقات الملتهبة** و **الحب الطبيعى** ، ثم انتقل هذا التـيار إلى المسـرح على أيدى عدد من الكتـاب المسـرحيين ، كـان أهمـهم (**كـينـيث برنارد**) ، و(**تشارلز لادلام**) ، و (**رونالد تافيل**) ، كما سـاعد المخرج (**جون فاكرو**) فى تشجـيع هذا التيار باخـراجه العديد من أعـمال هؤلاء الكتاب ، كـان أولها مسرحـية **لرونالد تافيل** بعنوان **حياة ليدى جودايفا** التى قدمت لأول مرة عام ١٩٦٦ تحت شعار مسرح «الاستهزاء والتتفـيه» أو « التريقة » . ثم تبع ذلك العرض تأسيس فرقـة مسـرحيـة خاصـة تحمل ذات الشـعار باسم « فـرقة مـسرح الاستهزاء » فى عام ١٩٦٨ وكان مؤسسها **تشارلز لادلام** .

وعلى الرغم من أن الفرقـة لم تصدر منشوراً بمبادئهـا ، كما يحدث عادة عند بزوغ تيار مسـرحى جديد أو مذهب أو مدرسة ،

إلا أن هذه المبادئ تظهر بوضوح فى الأعمـال المسرحية التى تنتمى إلى هذا التـيار . وربما كان المبـدأ الأساسى هو اسـتخـدام سلاح السخرية اللاذعـة فى محاولة لتدمير جـميع المبادئ والنظريات التى تحكـم الأنظمـة السـيـاسـية فـى جـمـيع أشكالهـا ، والعلاقـات الإنسانية ، والمفاهيم الثقافية ، والأفكار الفلسفية والسيكولوچية ، التى أصبحت فى نظر أتـباع هذا التيار زائفة لا تنتـمى إلى واقعهم المجنون .

وفى محاولة تحقيق هذا الهـدف غير المعلن اتبع أصحاب هذا التيار أسلوبًا جـديداً فى عروضهم المسرحية ، يقـوم على المحاكاة الهزلية المتعـمدة الصريحة للأشكال المسرحيـة والأدبية الكلاسيكية المعروفة ، وذلك عن طريق المبالغة فـيها لدرجة الخلل الذى يقترب بحـدة صارخـة من أسلوب الكاريكاتيـر ، مع خلطها خلطًا شـاذاً ومضحكاً بعناصر خارجـية عديدة مستقاه من فنون الترفيـة الشعبية الشائعة ، مـع المبالغة فى انتقاء الهابط والفج والسوقى منها بالذات ، ومن خصائص هذا الأسلوب أيضًا التركـيز على كل ما هو شاذ وغريب فى سلوكيات المجتمع ولغته .

أما أسلوب التمثيل والعرض فيتسم بالمبالغة الشديدة فى الحركة ومسـرحية الأداء المفتـعلة ، مع التأكيـد على المفارقات المحسـوسة الصارخـة ، التى تظهر فى أبسط صورهـا فى ارتداء النساء لملابس الرجال وقـيام الرجال بأدوار النساء ، بحـيث يصعب التميـيز بين الجنسين ، ويبدو جميع الممثلين كمـخلوقات شاذة شائهة ، كذلك يعتمـد هذا المسـرح بدرجة كبيرة على المؤثرات البصـرية المبهرة ،

وليس أقلها العرى ، وأعمال القسوة السادية ، والرموز الجنسية السوقية ، كما يعتمد على خلط الأزمنة والأمكنة التاريخية ، بحيث نجد شخصيات من العصور الوسطى أو عصر شكسبير فى انجلترا تختلط برعاة البقر فى أمريكا ، بل وبالموسيقار **(فرانز ليست)** نفسه ، كما يحدث فى مسرحية **حياة ليدى جودايفا** . وفى المسرحية نفسها نجد أحدث أغانى الديسكو وأحدث الموضات المجنونة فى فنون الرسم والتصوير ، تمتزج بأعرق كاتدرائيات العصور الوسطى ، التى تصبح بدورها بيوتًا للدعارة ، نرى فيها الراهبات يبتهلن على نغمات الديسكو وهن يؤدين أحدث الرقصات .

وأمام هذا الخلط الهستيرى العجيب الذى يثير إحساسًا بالرعب يعرفه كل من تعرض يوما ما للإحساس باقتراب الجنون لايملك الإنسان إلا الإغراق فى الضحك هرباً من جنون العصر ، واعترافاً باستحالة اصلاحه .

ولقد عبر **(تافيل)** فى تصديره لمسرحيته **حياة ليدى جودايفا** عن روح هذا التيار المسرحى الجديد وجنونه عندما قال :

« أما عن العبث فقط تخطيناه بمراحل . لقد أصبح عالمنا الآن مرعباً فى جنونه لدرجة الهزل ! » .

وفى مسرحية كتبها **كينيث برنارد** بعنوان **العرض السحرى للدكتور (ماجيكو)** ١٩٧٢ - نلمس بوضوح هذا المزيج العجيب من الجنون والهزل والرعب ، إذ يجد المتفرج نفسه فى حجرة

ساحر من القـرن السابع عشر ، تحيط بـها المرايا من كل جانب ، بحيث تعكس الشـخصيات المسـرحية والمتفـرجين فى آن واحد فى أشكال كـاريكاتورية شـائهة . وتتـكون المسرحـيـة من سلسلة من المشاهد ، التى يهدف منها الساحر إلى كشف الحقيقة للمتفرجين . وتتلخص الحقيقة التى يكشف عنها الدكتور (ماجيكو) فى أن الحياة تحكمها القسـوة العشوائية العمياء والخـيانة والشر . وللكشف عن هذه الحقيقة يستخدم الدكـتور (ماجيكو) أسلوب المحاكاة الهازئة ، إذ هو يعرض فى كل مشهد لفكرة أو شخصية مألوفة فى الأدب أو الحواديت ، ويعالجها بحيث تتحول إلى مسخ مناقض لما كانت عليه ، وتثـيـر الضـحك والرعب فـى آن واحـد . ويخلص المؤلف (**كينيث برنارد**) إلى أن التواصل الإنســانى الطبيـعى ، حتى على أبسط المستويات وهو المستوى البيولوجى ، قـد أصبح مستحيلاً فى جحيم الحياة المحـموم الذى يصوره . فالجنس يؤدى بالضرورة إلى الموت لا إلى الحياة فى مشاهد المسرحية الثمانية .

وربما كانت المسرحيـة التى ألفها **تشارلز لادلام** وأسماها **دماء مسرحية** (١٩٧٩) هى أقيم النصـوص التى قدمتها هـذه الفرقة من الناحية الأدبية . والمسـرحية تصور مجموعة من المـمثلين يستعدون لتمثيل مسرحية **هاملت** ويفاجأون بهـروب الممثلة التى تقوم بدور أوفيليا . ويكشف هروبهـا عن مجموعة من العلاقـات المعقدة بين الممثلين ، ويفـجر سلسلة من المؤامرات التى تنتهى بجـريمة قتل .

وبناء المسرحية يقول على التقابل الدائم والمتوازى بين المؤامرات والجرائم التى تضمنها نص **شكسبير** وبين المؤامرات والجريمة التى تقع فى كواليس المسرح ، بحيث يشيع الوهم ، ويختفى الحد الفاصل بين الفن والحياة ، ولا يدرى المتفرج إن كان الفن يحاكى الحياة أم أن الحياة هى التى تحاكى الفن . ويقترب النص فى روحه من مسرحية **بيراندللو ست شخصيات تبحث عن مؤلف** من حيث تشكيكها فى إمكان معرفة الحقيقة بصورة مطلقة ، ومن حيث خلطها للواقع بالوهم الفنى المسرحى . ويقدم **(لادلام)** نص **شكسبير** على أنه قصة بوليسية أضاف إليها **شكسبير** بعداً يتنافى مع المنطق المفهوم ، لا باعتبارها تراجيديا تتضمن بعدًا فلسفيًا .

كذلك يضمن **(لادلام)** نصه الكثير من التعليقات اللاذعة ، التى تتناول بالسخرية كل من يأخذ الفن المسرحى مأخذ الجد الشديد فى عالم ساده الجنون ، ويهزأ بكل التجارب المسرحية الجديدة الجادة التى تقوم على تصور فلسفى أو اجتماعى لوظيفة المسرح . فهو مثلا يقول على لسان أحد أبطاله :

« أفهم أن يسمى جروتوفسكى كتابه « نحو مسرح فقير » ، ولكننى لا أفهم لماذا يبيع الكتاب بخمسة عشر دولارًا .. ! » .

وعن فن الأداء التمثيلى فى المسرح يقول ساخرًا فى سياق المسرحية « كلما نشدت الصدق والأمانة فى الأداء وجدت نفسك تحقق العكس تمامًا فأنت فى الحقيقة تنشد الخديعة الكاملة ! » .

وربما كان أكثر الكتاب المسرحيين الانجليز اقتراباً من روح هذا التيار المسرحى الأمريكى هو **(توم ستوبارد)** ، خاصة فى مرحلته الخلاقة الأولى ، **فهو أيضا قد استخدم مسرحية هاملت** للتعليق الساخر على حيرة الإنسان فى العصر الحديث - أى على الوضع الراهن - وذلك فى مسرحيته **روزنكرانتس وجيلد نشتيرن قد ماتا .**

كما أنه أكثر الكتاب الانجليز سخرية من الفلسفات والسفسطة اللغوية وأكثرهم استخداماً لعنصر الهزل فى مسرحه . لكن **(توم ستوبارد)** لم يحاول أن يتخطى الحد الفاصل بين الواقع والوهم المسرحى ، كذلك فهو يُكنّ احتراماً بالغاً للفن المسرحى واقتناعا عميقا بقيمته فى ذاته وبصورة مطلقة ، وربما كان هذا ما يميزه أساسا عن كتاب تيار مسرح الاستهزاء .

ومع انحسار موجة التجريب فى المسرح فى أوربا وأمريكا مع بداية الثمانينيات ، ومع ازدياد التركيز على المسارح الاقليمية ومسارح المجتمعات المحلية الصغيرة ، ومع ظهور بشائر محاولات للبحث عن منابع للقيمة فى حياة الإنسان ، عما أسماه **(توم ستوبارد)** فى آخر مسرحياته « بالشئ الحقيقى » (١٩٨٣) ، وهو عنوان المسرحية ، يمكننا التنبؤ بأن تيار المسرح الاستهزائى سيبدأ فى الانحسار . فهو تيار قد حمل التجريب فى المسرح إلى ذروته ، واليأس إلى درجة الملل من اليأس ، ولننتظر ما تجئ به الأيام .

المونودراما

الدلالات الفكرية لهذا الشكل الفنى الغربى

شاهدنا فى الأعـوام الماضيـة عددا من المونودرامـات التى قام ببطولتهـا ممثلون مخضـرمون ، مثل عبـد الرحمن أبو زهرة (فى **نادى النفوس العارية** لمحمد الباجس) ونعيـمة وصفى - رحمها الله - (فى **عديله** - لنهاد جاد) . وسناء جميل (فى **الحصان** - لكرم النجار) ، ثم انتـقلت موضة التـمثيل الانفرادى إلى شـباب الممثلين فى مصر والعالم العـربى ، فرأينا ابراهيم عبد الرازق فـى **الأيدى البيضاء** ، والفنـان المـغـربى عـبـد الحق الـزروالـى فـى **رحلة العطش** ، (الـتى قدمهـا على مسرح المعهـد العالى للفنون المـسرحـية) ، ثـم أحـمد ماهـــر فـى مونودرامـــا تونسـية - مصرية من إخراج سمير العصفورى ، عن نص عز الدين المدنى ، المسمى **التربيع والتدوير** ، كذلك أقـامت جمعيـة هـواة المسرح عددًا من المهرجانات المسرحية للمونودراما ، ممـا يدلل علـى مدى تزايد حـجم الاهتمـام بهـذا الشكل الفنـى . كـذلك ألمس بحكم عـملى فى تدريس الـدراما إقـبـالاً شـديدًا من شـبـاب المؤلفـين والمخرجين مـن دارسى الدراما على هذا الشكل بالـــذات إذ أجد معظم النصوص التى يكتبها هؤلاء من فصيلة المونودراما .

ومما لا شك فـيه أن أى نشـاط مسـرحى مـخلص نزيه يثيـر البهجة ويحيى الأمل فى النفوس ، لذلك لا أود أن يتصور القارئ

أن الغرض هنا هو الهجوم على نشاط أو شكل مسرحى بعينه ، أو صرف الشباب عن الكتابة فى قالب درامى معين (والعياذ بالله).
إننا فقط نود أن نقف وقفة قصيرة لنتأمل ظاهرة مسرحية لها دلالات ثقافية مؤلمة - فى اعتقادى .

فإذا اتفقنا على أن الأشكال المسرحية هى فى حقيقة الأمر أنشطة ثقافية لا تنفصل عن وجدان المجتمع وحركته التاريخية - أى أنها ليست مطلقات فنية توجد فى فراغ - نجد لزامًا علينا حين نواجه بظاهرة ثقافية مثل اجتذاب شكل مسرحى بعينه للمبدعين فى فترة ما أن نحاول تلمس دلالاتها التى قد نتفق أو نختلف عليها - خاصة إذا كان هذا الشكل نتاج حضارة وثقافة مختلفة - أى إذا لم يكن نتاجاً طبيعياً للمجتمع .

ومهما يكن الأمر ، وسواء تحمسنا للمونودراما أو اعتبرناها نذير ردة فكرية ، ففى الحوار والجدل - على أية حال - إيقاظ للوعى النقدى بالدلالات الفكرية للظواهر الفنية ، وهو وعى نحتاجه أشد الحاجة فى الفترة الراهنة التى أصبح تغييب الوعى فيها - سواء عن طريق الشعارات أو الغيبيات أو الإعلانات أو المسلسلات أو المخدرات - هو الخطر الأول والداهم . ولنحدد أولاً ملامح المونودراما من خلال الخلفية الفكرية التى شكلتها فى أوروبا قبل أن نتساءل عن الدلالات الفكرية للإقبال عليها حديثاً فى مصر .

ماهى المونودراما ؟

المونودراما هى مسرحية يقوم بتمثيلها ممثل واحد يكون الوحيد الذى له حق الكلام على خشبة المسرح . فقد يستعين النص المونودرامى فى بعض الأحيان بعدد من الممثلين ، ولكن عليهم أن يظلوا صامتين طول العرض والا انتفت صفة « المونو » (من الكلمة اليونانية Mono) بمعنى « واحد ») عن الدراما .

ورغم أن المونودراما لم تظهر بشكلها المكتمل إلا إبان الحركة الرومانسية التى بدأت تجتاح أوربا منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر إلا أن بذورها وجدت منذ بدايات الدراما الأولى ، ونلمحها فى المشاهد التى كان البطل فيها فى المسرحيات اليونانية القديمة ينفرد بالحديث مدة طويلة بينما ينصت الجمع له فى صمت حتى ينتهى . ولكن الكاتب اليونانى كان يحرص على استيعاب الحديث الفردى فى إطار جماعى ، فكان الكورس دائمًا حاضراً يستمع ويجيب ويعلق مهما طالت المقاطع المنفردة بحيث احتفظ المسرح اليونانى إلى حد كبير بمعادلة متزنة بين الفرد فى فرديته والجماعة والمجتمع ، وأقام جدلاً نامياً ، أى حواراً دراميًا حقيقيًا بين القيم الثابتة التى يمثلها الكورس وبين دوافع اللحظة وواقع الفرد الملح الذى يمثله البطل .

ولكن فى المسرح الرومانى ، وخاصة فى تراجيديات الكاتب اللاتينى **سينيكا** الذى قلد التراجيديات اليونانية رغم اختلاف البنية الثقافية اليونانية عن الرومانية - فى المسرح الرومانى انقلب

الوضع ولم تعد المقاطع المنفردة تعـبر عن فردية البطل وصراعه مع التقاليد الثابتة ، بل أصبحت تعبر عن القيم الموروثة بجميع أنواعها واتخذت - كنتيجـة طبيعية - صورة الخطب البـلاغية الطويلة التى تعرقل مسار الحدث الدرامى وتعطله .

واستمرت المقاطع المنفردة - اى «السولو» (Solo) أو «المونو» - على هذا الحال فى التـراچيديات الأوربيـة فى عصر النهـضة ، تلك التى تأثرت بحـركة إحيـاء الكلاسيكيـات والتزمت بالقـواعد الجامدة الـتى استنها نقاد فـترة عصر النهـضة استنادًا إلى التقـاليد الكلاسـيكية . فنجـد أبطال هذه التراجـيديات يحتكـرون المسرح فتـرات طويلة ليلقوا على مـسامع الجمـهور الخطب العصـماء التى تحـوى المواعظ الأخـلاقيـة التى لا تتـصل بمواقف حـيـة من واقع المجتمع أو واقع المسرحية .

وظل عنصر الفـعالية البلاغـية (بدلا من الفعاليـة الدرامية) يسـيطر على هذه المقاطع المنفـردة فى التراچيـديات الأوربية حـتى الحركة الرومانسية - باستثناء فترات ذهبية فى المسرح - مثل المسرح الإلزابيثى - وبـاستثناء بعض مـسرحـيات لكتاب مـتمـيزين على رأسهم **شكسبير** . لقـد اسـتطاع **شكسبير** بحسه المسـرحى الفذ ورفضه للتقـاليد الكلاسيكية الجامدة وتفتـحه على التيارات الفكرية السائدة فى عصره - وأهمها الثورة الاجـتماعية والفردية - أستطاع أن يحيل هذه الخطب البـلاغية إلى مونولوجات درامـية تفصح عن

فردية البطل ، وتلتحم بالهموم الاجتماعية والسياسية والفكرية فى آن واحد ، وتدفع بالحدث الدرامى إلى الأمام . ولو رجع القارئ إلى مسرحية **هاملت** أو **لير** أو أى من تراجيدياته فسيجد فيها مقاطع تكاد تمثل مونودرامات صغيرة ولكن دون أن تحمل عيوب المونودراما .

ولكن باستثناء **شكسبير** وقلة قليلة من الكتاب ، ونظراً لسيادة التيار الكلاسيكى المحافظ - خاصة بعد فشل الثورة الجمهورية فى انجلترا وعودة الملكية فى عام ١٦٦٠ ، ظلت المقاطع المنفردة فى التراجيديات خطباً بلاغية جامدةً لا مونولوجات درامية حية تهدف إلى استبطان الفرد لذاته وإلى ربط الحركة النفسية الفردية بالحركة الاجتماعية الجماعية . فقد حارب التيار الكلاسيكى النزعة الفردية التى أتى بها عصر النهضة إذ رأت المؤسسات الحاكمة فى أوربا آنذاك فى هذه النزعة خطراً على استقرار أنظمتها ، وأصبح الشعار السائد فى الفن والفكر هو وجوب التزام الفرد بالأنظمة والأشكال السائدة ، وخنق نزعة التفرد والثورة والتجديد .

وعندما اجتاح أوروبا بعد ذلك - وكرد فعل طبيعى لموجة المحافظة الشديدة - التيار الرومانسى الذى نادى بالثورة على التقاليد والأنظمة الموروثة وقدس فردية الفرد ، عادت بذور المونودراما إلى النمو ودبت فيها الحياة . وليس أدل على ارتباط المونودراما كشكل فنى بالفكر الرومانسى الذى يدعو إلى التفرد من مسرحية مونودرامية بعنوان **بيجماليون** كتبها الفيلسوف الفرنسى

الشهيـر - أبو الحركة الرومانـسية - (**جان جـاك روسو**) عام ١٧٦٠ . وربما كانت هذه المسرحية هى البداية الحقيقية للمونودراما كشكل أدبى درامى . وفى الفـترة نفسهـا - أى فى النصف الثانى من القرن الثامن عـشر - احتلت المونودراما خشـبة المسرح الأوربى لأول مرة وروج لهـا - آنذاك - الممثـل الالمانى الشهـير (**يوهان كريستيان براندز**) ، الذى وجد فى هذا الشـكل الفردى ، الذى يخول للممـثل احتكار خشبة المسـرح دون منازع ، فرصة لإطلاق مواهبة التمـثيلية الفذة . ولا شك أن انفراد الممثل بخـشبة المسرح يمثل عنصر جذب أساسى فى المونودرامـا ، لذلك كثيراً ما توصف بأنها Virtuoso piece ، أى نص يسـمح للمـثل باسـتـعـراض عـضـلاته التـمـثيـلية . ولـكن بعـد هذا الازدهار المؤقت توارت المونودراما عن خشبة المسرح إبان القرن التاسع عشر ، وكان لذلك أسباب .

إن المد الثورى التحريرى الذى حوته الحركة الرومانسية والذى كان يهدف إلى تغيير المجتمع سرعان ما اصطدم بالنزعة الفردية فيها ، التى جعلت من الفرد مـحور حركة الكون ، فاتجـه دعاة الثورة الاجتماعية تدريجيًا إلى العمل الجماعى ، بينما انزوى دعاة تقديس الفردية والفرد فى ظلال عـوالم غيبية رمـزية منفصلة عن الواقع ، واستبدلوا بشـعار خلاص الجماعة شعـار خلاص الفرد. وانعكس هذا الانقـسام الفكرى فى المسـرح فنشأ المسـرح الواقعى والـرمزى جنبًا إلى جنب ، واستمر كل فى طريقة يتـعثر حينًا ويقوى حينًا ،

وانسحبت المونودراما بطابعها الفردى المتأصل بعيدًا عن عالم المسرح الذى يحكمه مبدأ النشاط الجماعى والجدل بين الفرد والجماعة ، ووجدت متنفسا لها فى مجال الشعر فظهرت القصائد المعروفة باسم قصائد المونولوجات الدرامية التى برع فيها الشاعر الانجليزى **روبرت براوننج** على وجه الخصوص .

ولكن مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، ومع الصحوة الرومانسية التى بلغت أوجها فى المسرح على أيدى التعبيرين فى ألمانيا ، بدأت المونودراما تعود إلى خشبة المسرح فنجد تشيكوف يكتب نصاً مونودراميًا بعنوان **التبغ** ، ونجد المخرج الروسى (**نيكولاى يفرينوف**) يدخل هذا الشكل إلى المسرح الروسى بعد أن خلف المخرج التجريبى الشهير (**ما يرهولد**) فى إدارة فرقة الممثلة (**فيراكوميسار جفسكايا**) عام ١٩٠٧ ، ثم نجد **جان كوكتو** يكتب مونودراما بعنوان **الصوت الإنسانى** فى فرنسا عام ١٩٣٠ .

ولكن المد الرومانسى الثانى فى القرن العشرين اصطدم بذات العقبة التى تحطمت على صخرتها أحلام المد الرومانسى الأول ، أى عقبة التوفيق بين الثورة الفردية والثورة الجماعية ، أو بين الخلاص الفردى الذى اكتسى تدريجيًا صبغة الحل الدينى ، والخلاص الجماعى الذى اكتسب تدريجيًا صبغة الثورة الإشتراكية .

لقد تأرجح التيار التعبيرى فى المسرح بين النزعتين بصورة واضحة ، وفشل فى الوصول إلى معادلة مرضية ، فانقسمت الحركة الرومانسية على نفسها مرة أخرى ، وتولد من التيار التعبيرى الرومانسى نوعان من المسرح : مسرح يلتحم بالمجتمع ويلتزم بقضاياه ، ويمثله **بسكاتور وبريخت** ، ومسرح يسحب الفرد بعيدًا عن دائرة المجتمع وبصوره فى احباطه وقنوطه ووحدته . وبينما ركز النوع الأول على الجماعة وناوأ فردية الفرد تمامًا ، ركز النوع الثانى على الفرد وحده . وانحازت المونودراما بصورة طبيعية إلى هذا النوع الثانى . ولم يكن غريبًا أن يبدى **صامويل بيكيت** - الكاتب العبثى - اهتمامًا كبيرًا بالمونودراما كشكل فنى وأن يكتب عددًا من المونودرامات على التوالى مثل : **شريط كراب الأخير ، والجمرات ، والأيام السعيدة ، وأليس كذلك يا جو ؟ ومسرح بلا كلمات** (وهى مونودراما صامتة من جزئين) وغيرها . لقد وجد **بيكيت** فى المونودراما أصلح الأشكال المسرحية لصياغة رؤيته العبثية التى تقوم على عزلة الفرد ، واستحالة التواصل ، واليأس من الحلول الاجتماعية .

الملامح الفنية والفكرية للمونودراما :

وفى ضوء هذا العرض الموجز لتاريخ المونودراما نستطيع تحديد الملامح الأساسية لهذا الشكل الدرامى .

أما الملمح الأول فهو التركيز على الفرد : فالمسرح فى المونودراما يشغله ممثل واحد ينفرد بخشبة المسرح ليقنع المتفرجين

بعبقريتـه التمثيلية فى غياب أى تحـد أو مقارنة . المونودراما إذن ، تقوم فى التمثيل على أساس المنظور الواحـد الذى تنعدم فيه فرصة الجدل عن طريق التنوع .

ومع انعدام الجـدل فى الأداء ينعدم الحوار بالمعنى الحقـيقى ، فالممثل فى المونودراما قد يقيم جدلاً مع نفسه ، ولكنه جدل زائف إذ هو أحادى المنظور .

أما الملمح الثانى فهو العزلة : أن ظهور ممثل واحد على خشبة المسرح لمدة ساعة أو أكـثر يخلق هذا الإحساس لدى المتفـرج مهما كان مـوضوع المسرحيـة ، ومهمـا استُخدم من مؤثرات صـوتية. فالمونودراما بطبيعتها تفـصل البطل عن محيطه الاجتماعى ، وتجعل مـسـرح الأحـداث هو النفس الفـردية . وينـتج عن هذا الفـصل الاجتـماعى فصل تاريخى أيضًا . فـالزمن فى المونودراما هو زمن نفسى لا يتقيد بلحظة تاريخية معينة لها التزاماتها الملحّة على طريق الفـعل ، فالفـعل يتطلب من يقع عليـه الفعل فى إطار من التـوتر والمقاومة . ولكن هذا العنصر ينتفى من المونودراما . إن المونودراما تبرز بصورة غـير مباشرة انتفـاء القدرة على الفعل - اللهم إلا إذا كان فعلاً انتحاريًا وهذا ملمح آخر من ملامحها .

ويتبع التركيز على انتفاء القدرة على الفعل تركيز على الماضى من ناحـية ، والحلم من ناحـية أخـرى ، بحيث تعـتمـد الحركـة

الدرامية فى تطورها على الصراع النفسى المركّز بين ما كان وما كان يمكن أن يكون ، وبين التوقع والتحقيق .

وغالبًا ما تتمتع المونودراما كشكل فنى بالكثافة الشعورية الشديدة النابعة من تركيز الحدث الدرامى فى شخصية واحدة تلح على وجدان المتفرج طول العرض . وربما كانت هذه الكثافة الشعورية أحد عوامل الجذب الرئيسية فيها . فهى بالنسبة للمسرحية العادية كالقصة القصيرة بالنسبة للرواية فى عالم الأدب الروائى من ناحية التركيز الشعورى .

ولكن المونودراما كشكل فنى اكتمل فى أحضان النزعة الفردية ، التى وصلت بها الحركة الرومانسية إلى مرحلة التقديس ، تحمل فى طياتها رسالة خفية تضع الخلاص الفردى فوق الخلاص الجماعى ، وتنقل بؤرة التركيز من جدل الفرد والجماعة إلى النفس فى انغلاقها على نفسها وجدلها العقيم مع ذاتها .

وحتى عندما تحاول المونودراما أن تطرح نوعًا من النقد الاجتماعى الساخر عادة ما تصطدم هذه المحاولة بحدود الشكل المسرحى المونودرامى الذى يصل بالنقد إلى طريق مسدود - فهى حدود تعزل الفرد عن محيطه التاريخى ، وتسجنه فى دائرة الحلم واجترار الأحداث الماضية بدلا من التفاعل الحى عن طريق الفعل الحالى . لذلك لا تطرح المونودراما كشكل فنى إمكانية التغيير الاجتماعى ، وأقصى إنجاز إيجابى يتحقق من خلالها هو تعريه البطل الفرد (الذى يصبح بحكم الشكل الذى يطرحه وحده على

المسرح لمدة ساعة أو أكثر رمزاً للإنسانية جمعاء) دون أن تستشرف طريقا لرأب الصدع الذى تعريه .

والمونودراما بطبيعة شكلها تفتقر إلى العنصر النقدى فى تناولها لمادتها مهما حاول المؤلف تأكيد هذا العنصر . إن الحاح الممثل الواحد والمنظور الواحد على وجدان المتفرج طول فترة العرض يخلق نوعًا من التعاطف تنتفى فى إطاره امكانية النقد ، خاصة وأن المونودراما تتيح للممثل فرصة نادرة لشد الجمهور بقدراته الفذة بحيث تضيع الرسالة النقدية أو تبهت .

ظاهرة المونودراما فى مصر والعالم العربى :

إذا تساءلنا لماذا تجتذب المونودراما بصورة متزايدة عددًا كبيرًا من الشباب منذ السبعينات وحتى اليوم قد يقول قائل إن الشباب ينجذب إلى الأشكال الدرامية العالمية التى يجد لها نظائر فى الأشكال الشعبية المصرية والعربية ، وأن الراوى الشعبى الذى يقص قصة وقد يمثل بعض أجزائها وحده أو مع آخرين هو نظير لشكل المونودراما الغربى ، ولهذا يجد هذا الشكل هوى فى نفوس شباب المؤلفين والمخرجين . وردًا على هذا نقول أن هناك فرقًا واضحًا وجوهريًا بين المونودراما والرواية الشعبية . إن الراوى الشعبى يحتفظ فى عرضه بالبعد الروائى الذى يقدم منظوراً نقدياً يتجادل مع المنظور العاطفى الذى يطرحه الجزء التشخيصى من عرضه ، أى الجزء الذى يهدف إلى إحداث التأثير عن طريق التلاحم العاطفى - أى أننا نستطيع اعتبار الجزء الروائى تعليقًا على الجزء التشخيصى .

ولكن فى المونودراما الغربية ينتفى هذا المنظور النقدى الروائى. فالممثل يحاول فيها أن يمتص وجدان المتفرج داخل حلبته ، وأن يستولى على مشاعره تماما بمهارته الأدائية ، وأن يجعله جزءاً من عالمه بحيث يعتنق تمامًا نظرته إلى الأشياء ، أما الراوى الشعبى فهو يدخل الشخصية التى يمثلها ثم يخرج منها على التوالى بحيث لا يطغى منظور الشخصية التى يتقمصها على المنظور السردى التعليقى.

وقد يقول قائل أن المونودراما تزدهر الآن لعوامل اقتصادية بحته لا دخل للثقافة فيها . فميزانيات المسارح ضعيفة ومن البديهى أن المسرحية التى يمثلها فرد واحد تتطلب إمكانيات مادية أقل من المسرحية العادية ، وتمثل عامل توفير اقتصادى . ولكن أليس فى هذا القول قدر من التزييف للواقع ! إن مسرحية الممثل الواحد عادة ما تتطلب لنجاحها نجمًا عالى الأجر ، وقد تفوق تكاليف مونودراما مثل **الحصان** تكاليف مسرحيتين أو ثلاث من النوع التجريبى الذى كانت تقدمه مجاميع الشباب فى مسرح **الغرفة** مثلا الذى كان يعتنق أسلوب العمل الجماعى ويقدم العرض الناجح تلو العرض الناجح .

وقد يقول آخر ان إقبال بعض الشباب على كتابة المونودراما ينبع من تصور خاطئ بأنها أسهل فى التأليف من المسرحية المتعددة الشخصيات سواء كانت من فصل واحد أو عدة فصول . ورغم أن هذا التفسير يحمل قدراً كبيراً من الوجاهة والإقناع إلا أنه لا يفسر

الإقبال المتزايد على المونودراما فى الفترة الأخيرة بالذات . لماذا لم يقبل الشباب على كتابة المونودراما فى الخمسينيات والستينيات مثلاً ؟ وهى الفترة التى اهتمت **بصامويل بيكيت** ومسرحه الذى يعج بالمونودرامات اهتماماً كبيرًا ؟ لماذا ظهر هذا الاهتمام بالمونودراما فجأة فى السبعينيات ؟ أمن المستبعد أن تكون هناك علاقة وثيقة بين الاتجاه إلى المونودراما والظروف السياسية والاقتصادية والفكرية على الصعيدين العربى والمصرى التى سادت تلك الفترة ؟

ويطرح سؤال أخير نفسه :

أتكون دلالة الإقبال على المونودراما هى أن الإنسان العربى قد يئس من قدرته على السيطرة على قدره ، والإلتحام مع هيئاته ومؤسساته فى صراع بناء ، والإمساك بتلابيب التاريخ ، فالتف بفرديته ، وانزوى داخل ذاته يبحث عن خلاص فردى بعد أن يئس من الخلاص الجماعى ؟

المسرح العمالى فى الغرب

فى عام ١٩٨٥ صدر فى بريطانيا (عن دار روتليدج وكيجان بول للنشر) كتاب قيم لا غنى عنه للمتتبع لتاريخ المسرح فى العالم وخاصة تاريخ الحركة المسرحية العمالية ، أو للمهتم بدراسة العلاقة الجدلية بين التيارات الفنية والتغيرات الاجتماعية ، أو بين المسرح والمجتمع بصورة عامة . وعنوان الكتاب هو **أنواع من مسرح اليسار : اتجاهات المسرح العمالى فى بريطانيا وأمريكا** من ١٨٨٠ إلى ١٩٣٥ ، من تأليف : رافايل صامويل، وإيوان ماكول ، وستيوارت جوسجروف(*) .

والكتاب يقدم عرضًا تفصيليًا موثقاً للحركات المسرحية العمالية فى بريطانيا وأمريكا فى الفترة من ١٨٨٠ إلى ١٩٣٥ - تلك الحركات التى يمكن إدراجها جميعًا رغم تنوعها واختلافها تحت مظلة المسرح السياسى العملى ، أو مسرح العمل السياسى والاجتماعى سواء كان الهدف منه الاحتجاج أو الدعوة أو التحريض .

ويختلف هذا الكتاب شكلاً ومضمونًا عن غالبية الكتب التى تعرض لتاريخ المسرح الغربى إذ يتخذ مادته الوحيدة المسرح غير الرسمى الذى يقوم أساسًا على الهواة ، والذى يتجاهله عادة

(*) Theatres of the Left: 1880-1935 Worker's Theatre Mouements in Britain and Americc, by Raphael Samuel, Ewan Macloll and Stuart Gosgrove, London, 1985.

معظم مؤرخى المسرح فى الغرب ، وهو يعرض مادته الجديدة هذه فى شكل جديد يعتمد على التأريخ الجماعى ، أى تعدد الأصوات ، وعلى عرض الوثائق التاريخية نفسها على القارئ بأقل قدر من التدخل والتفسير . لذلك يحوى الكتاب عدداً كبيرًا من الوثائق القيمة ما بين مذكرات وخطابات وحوارات وأحاديث مسجلة لرواد وأقطاب حركة المسرح العمالى ، ومراسلات ومطبوعات ونشرات جماعية ، وبرامج عمل ومحاضر وتوصيات لبعض مؤتمرات المسرح العمالى ، كما يتضمن عددًا كبيرًا من النصوص المسرحية المنوعة التى قدمتها الفرق العمالية فى أماكن التجمعات العمالية أو فى الجامعات أو على مسارح مرتجلة فى الأندية والمكتبات العامة فى بريطانيا وأمريكا فى الفترة التى يؤرخ لها الكتاب .

وتشغل الوثائق والنصوص المسرحية الجزء الأكبر من الكتاب الذى يقع فى ٣٥٠ صفحة من القطع الكبير . وقد قام مؤلفو الكتاب بترتيبها وفقا للموضوعات أو الأفكار الأساسية التى تطرحها . فهناك على سبيل المثال قسم يحوى مجموعة من الوثائق التى تؤرخ للجدل الفنى الحاد الذى دار فى بريطانيا فى الثلاثينات بين العاملين فى المسرح العمالى حول مدى صلاحية أسلوب المدرسة الطبيعية لتحقيق أهداف المسرح العمالى . وهناك قسم وثائقى آخر خاص بنشأة المسرح العمالى السياسى فى أمريكا يحوى محاضر مؤتمرين من مؤتمرات المسرح القومى العمالى فى الثلاثينات إلى جانب مذكرات مخرج يصف فيها أسلوب العمل فى المسارح

العمالية والمراحل التى يمر بهـا النص المسرحى - الذى عادة ما يتم تأليفه بصـورة جماعية - حـتى يتحول إلى عرض مـسرحى يحقق الهدف المرجو منه . كـذلك يتضمن هذا القسم وثيقـة ممتعة تصف مغامرات مجموعة من عـمال الغزل والنسج لتقديم عرض مسـرحى .

ورغم صبغته الوثائقيـة الغالبة عليه إلا أن الكتاب لا يخلو من قدر من الـسرد التاريخـى ، فيجـد القارئ فى بداية كل قـسـم من الأقسام الوثائقية مقدمة سردية (كـما يسميها المؤلفون) بقلم واحد من المؤلفين الثـلاثة أو أحد أقطاب المسـرح العمـالى تعرض لفـترة هامـة أو ملمح أسـاسى فى تاريخ المسـرح العمـالى وتكون بمثـابة خلفية مبدئية للمادة الوثائقية التالية .

وبادئ ذى بدء يقـدم **(رافايل صامويل)** للكتاب بحديث عام حول المسرح والسـياسة بعنوان Theatre and Politics يؤكد فيه أن المسرح ليس مجرد عاكس للسياسة ، بل صانع لها بما له من قدرة على التـأثير الفكرى والوجدانى . ثم يعـقب ذلك فى فصل تال برصد وتحليل لعلاقة المسرح بالتـيار الاشتراكى فى بريطانيا فى الفترة التـاريخية التى يعرض لها الكتـاب . وبعد ذلك يقدم **(توم توماس)** للجزء الخـاص بوثائق المسرح العـمالى فى بريطانيـا بمقالة ممتعة بعنوان مسرح فقير للمعدمين أو (A Propertyless Theatre for a Propertyless Class) يبين فيـها العـلاقة بين المضـمون الاجتـماعى الجديد للمـسرح العمالى والأشكال الفـنية التجريـبية

الجديدة التى نبتت فى ظله ، ويتبعه (**إيوان ماكول**) فيقدم تأريخًا مفصلاً لأحد الفرق العمالية الهامة فى مدينة مانشستر البريطانية وهى فرقة **مسرح الفعل** Thcatre of Action .

فى المقدمة السردية التى تسبق القسم الوثائقى الخاص بالمسرح العمالى فى الولايات المتحدة يتتبع (**ستيوارت جوسجروف**) تطور المسرح العمالى الأمريكى بداية من المرحلة التى أسماها مرحلة **مسرح الصاعقة** إلى مرحلة **مسرح الجماعة** وذلك فى مقالة بعنوان : From Shock Troupe to Group Theatre

وتلقى هذه المقالة الضوء على المساهمة العملية الفعالة التى قدمها الفنانون المثقفون والجامعيون للمسرح العمالى بحيث تميز بالمرونة الفنية والابتكار والخيال الخصب والإقبال على التجريب بدرجة لم يتمتع بها المسرح العمالى فى بريطانيا . كذلك يؤكد **(جوسجروف)** الدور الإيجابى الهام الذى لعبه المسرح العمالى الأمريكى فى مقاومة التيار الفاشى الذى بلغ أوجه فى الثلاثينات وتمثل بوضوح فى نشاط جماعة كوكلوكس كلان (Ku Klux Klan) أو جماعة الفرقة السوداء (The Black Legion) أو غيرهما .

لقد تصدى المسرح العمالى الأمريكى بشجاعة ووعى لمأساة التفرقة العنصرية وطرح على خشبته المظالم الفاحشة التى عاناها الزنوج والأجانب من المهاجرين الأوروبيين فى جو المحافظة الفكرية

والقمع السياسى الذى نتج عن التـخوف من غزو الفكر الاشتراكى بعد انتـصار الثـورة الروسيـة ، خاصة بعـد تفاقم مـشكلة البطالة والأزمة الاقتصادية فى أمريكا .

لقد لعب المسرح العـمالى فى تلك الفترة دور ضمـير أمريكا الأخلاقى وحول الزنجى المقهور المُحتقر والأجنبى الغريب المُعدم إلى بطل شهيد لا يُنسى - ففـى مسرحية بعنوان **آلهة البرق** (١٩٣٠) على سبـيل المثال تعرضت فـرقة **الممثلون المتمردون** العمـالية فى مدينة لو أنجـيليس لحادثة حـقيقـية شهـيرة أثارت جـدلاً عنيفًا فى العشرينات وهى محاكمة وإعدام اثنين من المهاجرين الإيطاليين ذوى النشاط السـياسى المعارض بتهم مـلفقة هى السرقـة والقتل . وفى نفس العام قدمت فرقة من العمال المجريين نفس المسرحية فى مدينة نيويورك .

كذلك الهمت حادثة شنق أخوين من الزنوج بتهمة الإغتصاب بعد مـحاكمة مـرتجلة إبان حمى التفرقـة العنصرية عدداً كبـيراً من العروض العـمالية التى أدانت الحـادثة والضمير الأمـريكى - مثل العرض الذى قدمـته فرقة **المعمل المسرحى العمالى** بعنوان **مبدأ الشنق الفورى** (Lynch Law) وعـرض **فرقة بونه العـمالية** بعنوان Scottsboro (وهو اسم مـكان الحـادثة) . ثـم كـتب **(لانجستون هيوز)** نصًا بعـنوان **مؤسسة سكوتسبورو المحدودة** وكتب **(چورچ وكسلى)** نصًا يتبع مدرسة الواقعيـة الاجتماعية بعنوان **لن يموتوا أبدا** (They Shall Not Die) .

ومن ثنايا الوثائق والفـقرات السردية تبرز حـقائق عامـة حول المسرح العمالى ربما كان أهمها هو قدرته على تحقيق التواصل الفنى والفكرى الفعّال بين العمال والمسرحيين فى مختلف أقطار العالم - ذلك التواصل التى يتجسد فى انتقال النصوص والتجارب المسرحية من بلد إلى آخر ، فنجد مسرح العمال الإنجليزى يقدم عام ١٩٣٠ المسرحية تلو الأخرى للكاتب الألمانى **(إرنست توللر)** مثلا ، ونجد اتحاد المسرح العـمالى فى اليابان يخاطب أعـضاء الحركة المسـرحية العماليـة فى بريطانيا وأمريكا طالباً منهم المؤازرة والمعـونة فى وثيقة بتاريخ ١٢/٤/١٩٣٢ .

وثمة حـقيقة أخـرى يؤكدها تاريخ الحركة المسـرحية العمـالية وهى قدرة هذه الحركـة على حمل مشعل الفن الصـحيح حتى فى أشـد عصـور المسرح ظلامًا وانحطاطًا إذ يـذكر لنا التـاريخ أنه فى بريطانيا فى منتـصف العصر الفيكتورى ، حـيث غرق المسرح فى التفاهات الميلودرامية والهزليـة ، كانت فرق العمال من الهواة تمثل مسرحيات **شكسبير** بحماس متزايد ، بل لقـد قام فريق من العمال عام ١٨٦٤ بتـشكيل لجنة خاصة لـلاحتفـال بالذكرى المئوية الثـالثة لمولد شكسـبير وهو مـا لم يخطر على بال الأجهـزة الرسمـية أو المثقفين آنذاك أن يقوموا به .

ويلمح القـارئ فى منعطفات هذا الكتـاب الهام شـخصـيات لامعة مألوفـة ساهمت فى إثراء الحركة المسرحيـة عامة انطلاقًا من إسهـامها فى الحـركة المسرحـية العمـالية - مثل المخـرج الأمريكى

الشهير **(إيليا كازان)** والمؤلف **(كليفورد أوديتس)** الذى طـرق باب الشهرة بنص عمالى بسيط يدعى **فى انتظار لفتى** (Waiting for Lefty) من كلمة (Left) بمعنى اليسار - يتتبع فيه تحول عامل من اللامبالاة التامة إلى الالتزام .

ويحمل الكتاب فى طياته رسالة قوامها ضرورة تواصل المثقفين بالحركـة المسرحية الـعمالية . فـتاريخ المسرح العـمالى فى كل من بريطانيا وأمريكا يثبت أن التحام الجامعة بالمصنع ، أو أقسام المسرح بالجامـعات بفرق الهـواة العمالية مـن شأنه أن يثمر حـيوية ثقافـية وحركة مسرحية مزدهرة بأزهد التكاليف .

– إذا كانت الفلسفة الوجـودية التى بدأت بكتابات الفيلسوف **نيتشه** ووصلت أوج تبلـورها فى كـتـابات الكاتب والـفـيلسـوف الفرنسى **جان بول سارتر** ومعاصريه هى التربة الفكرية التى أنبتت العديد من التجارب المسرحية الجديدة ومنها مسرحيات **سارتر** نفسه ، ومسرحيات **ألبير كامى** ، إلى جانب العديـد من الأعمال التى تنتمى إلى تيار مسرح العبث . . .

– وإذا كانت الدلالات الفكرية التى ترتبت على نظرية النسبية التى جاء بها العالم **أينشتاين** هى أحد الروافد الهـامة التى ألهمت التكعـيبيـة كتـيار فنى سـواء فى مجال الأدب أو المسـرح أو الفن التشكيلى . .

– وإذا كانت نظريات علم النفس التى جـاء بها العالم النفس الشهير **سيجموند فرويد** وتلامذته هى الأرضـية التى أنشأ عليـها السرياليون أعمالهم التشكيلية والروائية والمسرحية . .

– وإذا كانت حالة الإحساس بالفوضى والعبثية واهتزاز اليقين بكل الموروثات (وهى حـالة نتـجت عن الحربين العـالميـتين اللتين مزقـتا القـارة الأوربية خلال النصف الأول مـن هذا القرن) – إذا كانت هذه الحالة وراء العديد من التجـارب المسرحية الثائرة – مثل تجارب مسرح القسوة مثلاً أو تجارب المخرج البولندى **جروتوفسكى** ومواطنه **يوزيف شانيا** والمخرج الانجليزى **بيتربروك** وغيرهم . . .

– فإن النظرية الماركسية ، ومـا أفرزته من فكر اشتراكى كانت هى الأرض التى أنبتت ما أصبح يُعـرف الآن بالمسرح السياسى فى تجلياته العـديدة فى الغرب ، بداية من تجارب المسرح العـمالى فى أواخـر القرن الماضى ، ومـروراً بالواقـعيـة الاشتـراكيـة ومسـرح التحـريض والدعوة إلـى الثورة – كمـا تبلور فى عـروض المخرج الألمانى **إيرفن بسكاتور** فى العـشرينات ، وفى عـروض مسـرح الجـريدة الحيـة فى أمـريكا فى الثـلاثينات – وانتـهاءً إلى المسـرح الملحـمى الذى وضع نظريتـه الشـاعـر والمؤلف والمخـرج الألمانى **برتولت بريخت** (١٨٩٨ – ١٩٥٦) ، ثم المسـرح الوثـائقى التى تأثر به .

– لقد كان **بريخت** شاعراً ثائراً رغم انتمائه للطبقة البرجوازية ، وعاصر فترة عصيبة من تاريخ بلده ألمانيا ، وتفاعل معها كشاعر وإنسان ، ودفعه وعـية بمسئوليته التاريخـية الذى بدأت بشائره عام ١٩٢٤ إلى الانتقـال من حالة السـخرية ، واللامبـالاة العدمـية ، والحياة الفـوضوية ، إلى الإيمان بوجوب تغييـر المجتمع عن طريق فحصه وتحليله ، وتوعية الناس بأسـباب شقائهم ومعاناتهم . ومن ثم كان تحوله بعد مسـرحياته المبكرة (مثل **بعل** و **طبول الليل** و **فى غابات المدن**) من فنان فوضوى إلى فنان ثائر ملتزم .

– لم يبدأ **بريخت** بالنظرية ، بل بدأ بالابداع والانغماس فى الحيـاة والمسرح . وأدرك تدريجـياً أن المسـرح قد تحول إلـى سلعة

ترفيهـية تتوجه إلى الطبقـة البرجوازية لتعكس آمالهـا وآلامها التى ترتبط بوضعهـا الطبقى المتميز ، وآله أن المسرح كـوسيلة توعية لا يصل إلى من يحـتاجـونه حقاً وهم الطـبقات المطحـونة ، وأنه إذا وصل إليهم (فـى عروض الهواة مـثلاً) لا يفعـل شيئـاً سوى أن يصبرهم على هـمومهم وبلواهم ويحاول أن يقنعهـم بأن معاناتهم هى « قدر مكتوب » عليهم ولا قبل لهم بردّه أو تغييره .

حين جاء **بريخت** إلى الحيـاة عام ١٨٩٨ كان يوجد مـسرح عمالى فى أوروبا ، لكنه كان فى الأغلب الأعم مسرحاً ميلودرامياً ساذجاً ، ينزع إلى التبسيط والمبالغـة فى عرض حياة الطبقة العاملة ومشاكلهـا ، ويركز على المشاكل التى تنتج عن سلوكيـات العمال مثل العنف والانغـماس فى الخمر والمخدرات والمـقامرة ولكن دون أن يحـاول أن يتـعـقب الأسـبـاب التى تـدفع العـمـال إلى هذه السلوكيات الهروبية ودون أن يطرح حلولاً جـذرية لعلاجها . كان المسرح الـذى يتناول حياة الـطبقة العـاملة فى بداياته مـسرح وعظ وعزاء : كان يعظ العـمال ويحثهم على الالتزام بـالقيم التى تحقق أكبـر ربح للرأسماليين وأصـحاب العمل ، ويعـزيهم عن أحوالهم المعيشية المتردية باعتبارها قـدراً مرسـوماً لابـد مـن قبوله والتسليم به .

لكن المسرح الذى يخـاطب الطبقة العـاملة لم يلبث أن تحول إلى مـسرح سـياسى حـقيـقى حين انضم إليه المثـقفـون والفنانون

الاشتـراكيون فى أمريكا وأوروبا بـعد الحرب العالميـة الأولى وكان أبرزهم المخرج الألمانى **إروين بسكاتور** الذى تأثـر به **بريخت** تأثرًا عميقاً .

- كان **بريخت** يملك أن يظل شاعـراً فوضوياً مبـدعاً يناهض الأوضاع والقـيم والأنظمة السائدة دون أن يقدم لهـا بديلاً - تماماً كمـا فعل الداديون من قبله ، ومن قـبلهم المؤلف الفرنسى **ألفريد جارى** . لكنه التقى وسط تخبطه وضياعه بالنظرية الماركسية والفكر الاشتراكى الثورى فكانت هذه نقطة التـحول التى جعلته أبرز مُنظّر للمسرح السـياسى فى القرن العشـرين ، بل وأبرز منظرى الدراما عامة فى هذا القرن .

- لم يكن مـسرح **بريخت** السيـاسى أو نظريته فـى المسرح الملحمى نبتاً شيطانياً ، فقـد مهد له الطريق فنانون مبدعون ثوريون سبـقوه وأناروا له الطريق فـأفاد منهم فى تنظيـره وممارستـه أعظم إفادة . ولم تتبلور نظرية **بريخت** بين يوم وليلة : بل كانت نتيجة ممارسـة طويلة وقـراءة وتفكير عـميق وتأمل للأشكال المسـرحيـة السـائدة وللنظـرية الدرامـيـة الأرسطيـة . وفى واحـدة من أوائل مسرحياته السياسيـة الهادفة - وهى مسرحية **أوبرا الثلاث بنسات** التى كتبها وقـدمها عام ١٩٢٨ - إتجه بريخت إلى المـسرح الشعبى وحـاول أن يقدم بديلاً للاوبرا الـتقليـدية التى تخـاطب الطبقـات الأرستقراطية والبرجوازية وترسّخ قيمها ، فجاءت المسرحية نموذجاً متألقـاً بديعاً ومبكراً للمسرح الملحـمى الذى يمزج الموسيقى بالغناء

والرقص ، والاسكتشات الفكاهيـة ، والتعليق النقدى اللاذع على الواقع الاجتماعى والسـياسى - مسرح يحقق المتعـة الفنية ، ويثير الفكر ، ويجدد عيـون المتفرج فينزع غشاء العادة عـن عينيه ، فإذا به يرى المألوف غريباً ويدفعه هذا إلى التأمل والتفكير .

- ومع مسرحية **أوبرا الثلاث بنسات** بدأت أفـكار **بريخت** حول المسرح تتـبلور فى عدد من المقالات المتوالية التى ناقش فـيها فلسفة المسرح الملحمى وشكله الفنى وتقنياته . وفى عام ١٩٤٧ - ١٩٤٨ ركز هذه الأفـكار فى كتـابه الشهـير **الأورجانون الصغير للمسرح** ، لكنه لم يتوقف بعدها عن تدوين تعليـقاته وملحوظاته حتى مـوته عام ١٩٥٦ . وقد تم جـمع كل ما كتـبه **بريخت** عن المسرح فى كـتاب حرره وترجمة البـاحث الأمريكى **جون ويليت** ونُشر لأول مرة عام ١٩٥٧ بعنوان **بريخت يتحدث عن المسرح** .

- والقـارئ لهذا الكتـاب يدرك أن **بريخت** ينطلق فـى نظرية المســرح الملحمى من رفـضه المبـدئى لنظرية **أرسطو** الدراميـة التى ضمنها فى كتابه **فن الشعر** فى القرن الرابع قبـل الميلاد وسيطرت تمامًا على المسرح الأوروبى عشـرين قرناً من الزمان ، بل ولا تزال تسيطر علـى بعض الممارسين المسرحـيين فى الغرب والشـرق حتى الآن .

لقد اكتشف **بريخت** أن قواعد الدراما التى وضعها **أرسطو** فى كتاب **فن الشعر** كانت نتاج تصور فكرى وسـياسى عن العالم فى

عصـره ، وإنه أى **أرسطو** حاول أن يجـعل من النظام السـياسى والفكرى السـائد فى عصره قـيمـة مطلقة لا تخضع لـلنقد ، ولا ترتبط بأية ظروف أو متغيرات تاريخية .

– أدرك **بريخت** أن البطل الفرد المتمـيز طبقيـاً فى التراچيدياً كما يصفها **أرسطو** هو رمز لمجتمع يقدس نظامـاً هرمياً معينًا يقوم على التمـييز الاقتـصادى والاجتمـاعى لفئة مـحددة وقهر الفـئات الأخرى ، كـما يقوم على مـجموعـة من العقائد الثـابتة التى من شأنها أن تحـافظ عليه . كذلك أدرك **بريخت** أن الخطأ التراچيدى الذى يؤدى إلى سقوط البطـل ليس فى حقيقتـه سوى خروج على هذه العقائد والأعراف وأن الهـدف منه تحذير المشاهدين من الوقوع فى نفس الخطأ والسـقوط إلى الهـاوية . وأدرك **بريخت** أيضاً أن النهاية الفاجعة لهذا البطل الذى يتوحد المتفرج عاطفياً معه إنما تحمل فى ثناياها تحذيراً ضد الثورة على واقع الأمور ، وأن فكرة التطهير التى يجعلها **أرسطو** هدف التراجيـديا ويعنى بها أن يشعـر المتفرج بالشفـقة على البطل الذى **يقوده** خطاء إلى السـقوط ، وأن يشـعر بالخوف من أن يتعـرض يوماً لنفس المصير – فكرة التطـهير هـذه إنما تعنى فـى الحـقيقـة تطهيـر المتفرج مـــن نزعـة الثورة عــلى الأوضاع الاجتماعية والأطر العقائدية مهما كانت ظالمة أو فاسدة .

– لكل هذا رفض **بريخت** النظرية الأرسطية وسعى إلى بلورة نظرية بديلة تعارض فى أرضيـتها الفلسفية ووسـائلها الفنية النظرية

الأرسطية التى كرّسـها الغرب على مدى عشـرين قرناً ، وصدّرها إلينا فى الشرق حتى كانت الثورة الجامحة عليها فى القرن العشرين - سواء فى الغرب أو الشرق .

- لقد أحدث **بريخت** ثورة حقيقـية فى نظرية الدراما ، وأتى بنظرية عكسية تعارض نظرية **أرسطو** تمامًا . وجوهـر الخلاف بين **أرسطو** و**بريخت** يتلخص فى جـملة **كارل ماركس** الشهيرة التى تقول : « لقـد انحصر جهـد الفلاسفـة دائما فى تفسيـر العالم ، وذهبوا فى ذلك مذاهب مخـتلفة . ولكن القضية الحقيـقية ليست تفسـير العالم ، بل تغـييره ». لقـد حمل **ماركس** التيار الفلسفى الذى ينطلق بداية من فـعل الإنسان الإرادى إلى ذروته ، وتحـولت الفلسفـة على أيدى أتباعه من نشاط فكرى يتـأمل الكون والإنسان إلى برنامج عمل ثورى يهدف إلى تغيير العالم وتغيير وعى الإنسان به .

وحين اعتنق **بريخت** الماركسية بعد مـرحلته الفوضوية الأولى أنتج نظريته المسرحية فى إطار الفكر الماركسـى فجاءت لهذا مخالفة تماما لنظرية **أرسطو** . لقد قامت النظرية الأرسطية على مبدأ خدمة وتدعـيم الأيديولوچيـة السائـدة فى عصـره ، وجـعلت من الفن محـاكاة للحـياة بهـدف تأكيد صـحة هذه الأيديولوچـية ، لذلك ركزت على ضرورة تقديم صورة منطقيـة واقعية ومقنعة عن العالم ، وأكدت على مـبدأ تعاطف المتـفرج واندماجـه وتوحده مع هذه

الصورة . أما النظرية البريختية الماركسية فقامت على مبدأ محاولة هدم الفكر السائد والدعوة إلى فكر جديد . لذلك أصرت على ضرورة مشاركة المتفرج مشاركة إيجابية فى العرض المسرحى عن طريق إيقاظ وعيه النقدى بمثالب الواقع ، بحيث يدرك ضرورة تغيير هذا الواقع ، وتستيقظ لديه الدفعة نحو الفعل الثورى بهدف التغيير .

وفى سبيل تحقيق هذا الهدف الأساسى إستن بريخت مجموعة من القواعد الفنية فى العرض المسرحى تشمل كل نواحيه (من الشكل الدرامى إلى أسلوب التمثيل والديكور وتوظيف الموسيقى . . الخ) وتهدف جميعا إلى هدم مبدأ الإيهام والتعاطف الأرسطى وإلى التغريب - أى إثارة وعى المتفرج بغرابة وتناقض واقعه الاجتماعى الذى يعريه العرض على خشبة المسرح ، وإلى إثارة رغبته فى تغيير هذا الواقع المتناقض الغريب تغييراً جذرياً حتى يستقيم مرة أخرى .

وقد لخص بريخت اختلاف مسرحه الملحمى عن المسرح الدرامى الأرسطى فى صورة جدول فى مقال بعنوان « المسرح الحديث هو المسرح الملحمى » . وقد فضلت أن أقدم للقارئ هذا الجدول التوضيحى فى ختام هذا التعريف بالمسرح الملحمى لأنه يحدد أبرز سمات وملامح هذا المسرح فى اقتصاد بليغ :

٢ جدول مقارنة بين المسرح الملحمى والمسرح الدرامى الأرسطى

المسرح الدرامى الأرسطى	المسرح الملحمى
١- يعتمد على الحبكة .	١- يعتمد على السرد .
٢- يستغرق المتفرج داخل الحدث الدرامى على خشبة المسرح .	٢- يحول المتفرج إلى مراقب للحدث.
٣- يستهلك قدرة الإنسان على الفعل .	٣- يثير قدرة الإنسان على الفعل .
٤- يثير أحاسيس المتفرج ومشاعره.	٤- يدفع المتفرج إلى إتخاذ قرارات إزاء ما يحدث والحكم عليه .
٥- يقدم للمتفرج تجربة يعايشها وجدانيًا .	٥- يقدم للمتفرج صورة للعالم يتأملها عقلياً .
٦- يسعى إلى تحقيق انخراط المتفرج وتورطه فى الأحداث .	٦- يسعى إلى مواجهة المتفرج بالأحداث مواجهة موضوعية .
٧- يوظف الإيحاء والتلميح .	٧- يوظف المناقشة والجدل ومقارعة الحجة بالحجة .
٨- يثير المشاعر الغريزية لدى المشاهد ويلعب عليها خفية بنعومة .	٨- يُخرج المشاعر الغريزية إلى النور ويدفع المشاهد إلى إدراكها بوعيه .

المسرح الدرامى الأرسطى	المسرح الملحمى
٩- يشعر المتفرج فيه أنه فى خضم الأحداث وجزء من التجربة الإنسانية المطروحة .	٩- يقف المتفرج فيه خارج الأحداث ويدرسها .
١٠- مفهوم الإنسان لا يخضع فيه للمناقشة والتفسير ، فالإنسان هو الانسان فى كل زمان ومكان ولا يتغير .	١٠- الإنسان يصبح فيه موضوع بحث وتمحيص ، فالإنسان قابل للتغير والتحول وقادر على إحداث التغيير وليس فكرة مطلقة أو مفهوماً مطلقاً .
١١- التركيز فيه على النهاية التى تقود إليها الأحداث .	١١- التركيز فيه على مسار الأحداث وعلى الأحداث نفسها .
١٢- كل مشهد يُولِّد المشهد الذى يليه ويتولد من سابقه .	١٢- كل مشهد يستقل بنفسه وبدلالته عن المشاهد الأخرى .
١٣- الحدث ينمو فى خط صاعد مترابط .	١٣- العرض يعتمد على تكنيك المونتاج والقطع والوصل ، ويتطور فى شكل منحنيات .
١٤- الحدث يتطور وفق منطق الحتمية الدرامية .	١٤- الأحداث تتوالى فيما يشبه القفزات .

المسرح الملحمى	المسرح الدرامى الأرسطى
١٥- يفترض أن الانسان عملية مستمرة ومتحولة .	١٥- يفترض أن الانسان كيان ثابت أو نقطة ثابتة .
١٦- يفترض أن الوجود الاجتماعى يتحكم فى الفكر ويحدد طبيعته وتوجهاته .	١٦- يفترض أن الفكر يتحكم فى الوجود ويحدد طبيعته ويقرر مساره .
١٧- مسرح يتوجه إلى العقل ويخاطب الوعى .	١٧- مسرح يتوجه إلى الاحساس ، ويخاطبه .

* عند هذا الحد ينتهى جدول **بريخت** لكننا نستطيع أن نضيف اليه من واقع كتاباته الأخرى عددًا من الملامح الهامة التى تتعلق بالنواحى الفنية ومنها :

١٨- الممثل يؤدى دوره من الخارج - أى دون تقمص ويخاطب عقل المتفرج ، فهو أقرب إلى الرواى الماهر الذى يجسد حدثًا شاهده .	١٨- الممثل فيه يتقمص دوره تمامًا ويندمج ويخاطب عواطف المتفرج .
١٩- الديكور فيه يشير إلى الأماكن بصورة رمزية تعارض الإيهام .	١٩- الديكور فيه يسعى إلى الإيهام بالواقع .
٢٠ - الموسيقى تعارض الحالة الشعورية وتكسرها ، وقد تعلق عليها تعليقاً ساخراً وبذلك تمنع الاندماج .	٢٠ - الموسيقى تعمق الحالة الشعورية وتكثفها لتحقق اندماج المتفرج فى الأحداث .

وأخيراً أود أن أنبه القارئ إلى أن العديد من النقاد الغربيين ، وعلى رأسهم الناقد الشهير **مارتن إسلن** ، يعتقدون أن **بريخت** لم يتمكن من تحقيق نظريته الملحمية بصورة كاملة فى أنضج أعماله مثل **جاليليو** أو **الأم شجاعة** أو **الإنسان الطيب** ، وإنه لم يستطع أن يتخلص تماماً فى هذه الأعمال من التعاطف مع أبطاله ، أو أن يمنع المتفرج من التعاطف معهم .

ولكن أياً كان الأمر ، يظل **بريخت** فناناً مجدداً تجريبياً استلهم تراث مسرح الشرق الأقصى فأثرى به المسرح الغربى ، وكان بحق فيلسوفاً للمسرح ، طرح نظرية فنية وفكرية متكاملة أثرت فى مسار المسرح ليس فى الغرب فقط بل أيضا فى العالم العربى .

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٣١٠ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977 - 01 - 5358 - 3